بسم الله الرحمن الرحيم

مجمع الهمذاني

مكتبة مجمع اللغة العربية
التاريخ: ٢٠٠٦/٧/٩٦
الرقم: ٩٩٧٣
٢٠١٥/١٠/٤
٩٧٠٥

مجتمع الهمذاني

من خلال مقاماته

بحث يحلل المقامات ويستشف من ورائها
صورة المجتمع الذي أنشئت فيه

الدكتور مازن المبارك
الأستاذ في جامعة قطر

دار الفكر

الطبعة الثانية :

١٤٠١ هـ

١٩٨١ م

دار الفكر - دمشق - ساحة الحجاز
ص. ب (٩٦٢) - برقيًا (فكر) هاتف (١١١٠٤١)

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ما زلت أذكر يوم كنا طلاباً في كلية الآداب بجامعة دمشق وكان أستاذنا الكبير شفيق جبري يلفت انتباهنا في كل مناسبة إلى مظاهر الحياة الاجتماعية في النصوص الأدبية ، ويطلب إلينا أن نقف عند ألفاظ أو تعبيرات تدل على جوانب من حياة القوم لنتعرَّف إلى ما اتخذوه من مأكل أو ملبس ، وما عقدوا عليه مجالسهم من جدّ أو هزل .

كنا من قبل نقرأ في كتب الأدب فلا نقف عند كثير مما ينبغي للقارئ أن يقف عنده ، فكان ـ رحمه الله ـ يطلب إلينا أن نقف ونستشف ما وراء الألفاظ من مظاهر حياة القوم . ثم كانت دراسة الأستاذ جبري لكتاب (الأغاني) خطوة قيمة في هذا الباب .

ولست أنسى يوم كلفني أن أدرس أبواباً من (العقد الفريد) وأن أسلك في دراستي مسلكه في دراسة الأغاني . ثم كان تشجيعه لي حافزاً دفع بي إلى المضيّ في هذا النوع من الدراسة حتى كان هذا البحث عن مظاهر الحياة الاجتماعية في مقامات الهمذاني . وهو بحث كتبته منذ زمن ، ثم حالت ظروف وشواغل بيني وبين إتمامه . وظهر الجزء الثالث من المجلد الثاني والأربعين من مجلة المجمع فإذا فيه « بيت القهوة » للأستاذ شفيق جبري ، وهو مقال في المسلك الاجتماعي الذي كان قد لفتنا إليه في دراسة النصوص الأدبية ، فكان مقاله منبهة جديدة لي على إعادة النظر وإتمام البحث الذي أقدمه اليوم معترفاً لأستاذي الكبير بفضله أولاً وأخيراً .

مدخل البحث :

من الناس من يقرأ الأدب على أنه غـذاء روحيّ يثقف ويفيـد ، ومنهم من ينظر إليه على أنه فن جميل يغذي الخيال ويرهف الإحسـاس ، ومنهم من يقبل عليه على أنه متعة تسلّي وتبهج .

والحق أن الأدب ، إلى جانب كونـه غـذاء للروح ينعشهـا ، وفنـاً للـذوق يرهفه ، ومتعـة للنفس يبهجهـا ، قـد يكون صورة تصوّر بعض جوانب المجتمع الذي وضعت فيـه . ولسنـا نعني بـذلـك أن الأدب ـ في كل عصر من العصور ـ صورة لعصره ، بل إنـه إذا كان كـذلـك فـإن من المرايـا مـا هو مقعّر ومـا هو محـدَّب ، ومنهـا مـا هو غير مستوٍ على كل حـال ؛ إن منهـا مـا يقلب الحقيقـة ويغيّرها بتصغيرها أو تضخيمها أو تشويهها . والجيد منها وحـده هو القـادر على أن يعطيك صورة الواقع بدون زيف ولا تحريف .

والأدب يستطيع إلى حـدٍ مـا أن يصـوّر لنـا جـانبـاً أو أكثر من جـوانب الحيـاة الاجتماعيـة التي نشـأفي ظلهـا ، ويختلف وضوح هـذه الصـورة وصـدقهـا بـاختـلاف الظروف والأحـوال ؛ ونرى أنـه كلمـا كان الأدب أبعـد عن قصـور الملوك وتصوير حيـاتهم ، وأقرب من الشعب وتصـوير حيـاتـه ، كان أبعـد عن الكـذب والريـاء وأقرب إلى الصـدق والواقع ، وأن الأدب الـوصفيّ خير أنـواع الأدب التي نطلّ منهـا على الحيـاة الاجتماعيـة ، لأنـه أدب لا تشوبـه الأغراض الخاصة والغـايـات الـدنيـا ؛ كالتكسّب أو التزلّف ، والتقرّب أو التكلّف ، هـذه التي تشوب أكثر الموضوعات الأدبية الأخرى فتفسد فيها صدق العاطفة وأمـانـة التصوير وحرّية التعبير .

إن في استطاعة الأدب ـ حين يريد وتتهيأ له الظروف ـ أن يقدّم لنا صورة من الصور الكثيرة التي تتراءى فيها المجتمعات وتعيش فيها الشعوب .

موضوعنا :

والمجتمع الذي نحاول في هذا البحث استخراج صورة له من خلال الأدب ، هو المجتمع الذي عاش فيه بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨هـ ـ ٣٩٨هـ) . والأدب الذي سنطلّ من خلاله على ذلك المجتمع هو المقامات الهمذانية . تلك المقامات التي نظر إليها الناس على أنها ثروة لفظية ، أو على أنها فنّ من فنون الأدب كثرت فيه الزينة والصنعة ، أو على أنها قصص أو حكايات فيها تسلية ومتعة ، ولم ينظروا إليها على أن من ورائها حياة تصورها ، وعلى أنها إلى جانب كونها كنزاً لفظياً ، وأدباً ممتعاً ، وحكايات فكهة ، صورة لجوانب مختلفة من المجتمع الذي أنشئت فيه : إنها تأخذ بأيدينا إلى الماضي وتقفنا على فترة من فترات الحياة التي عاشها أسلافنا ، وتذيع علينا الكثير من أسرارهم ومما ضنّ به تاريخهم . وأي تاريخ يصوّر لنا حياة القوم في مجالسهم العاديّة ، وفي هزلهم ومجونهم ، وما يدور بينهم في دورهم وأنديتهم ؟ بل أي تاريخ يدخل بنا حماماتهم وحاناتهم ويعرض علينا نماذج من طعامهم ولباسهم ؟

إن بديع الزمان يقوم بكل ذلك كما سنرى ، وإن إعجابنا به ليزداد إذا علمنا أنه لم يكتب في هذه المقامات للغرض الذي ندرسها من أجله ، وإنما كان غرضه منها أن يفيد المتعلّمين ، ويحبّب إليهم اللغة ويغريهم بحفظ مفرداتها ، وأن عنايته فيها كانت منصرفة إلى المبنى وتزيينه ، وإلى الأسلوب وتحسينه ، لا إلى المعنى وتبيينه ولا إلى المجتمع وتصويره .

فصول البحث :

ويكون بحثنا هذا في أربعة فصول : يتناول الأول منها حياة بديع الزمان ، وخاصة ما يتصل منها ببحثنا . ويتناول الثاني مقامات الهمذاني وموضوعاتها خاصة ، وأدبه بصورة عامة . ويبحث الفصل الثالث في الحياة الاجتماعية من خلال المقامات ، وسنصرف جهدنا في هذا الفصل إلى توضيح صورة المجتمع عن طريق لمِّ أجزاء هذه الصورة التي تفرَّقت في ثنايا المقامات ، وسنترك للموضوع نفسه ـ عن طريق الموازنة بأخبار التاريخ ـ أن يعيّن مدى وضوح هذه الصورة وصدقها وانطباقها على الصورة التاريخية لذلك المجتمع . وأما الفصل الرابع فسيكون خاتمة تبحث في قيمة هذه الصورة المستقاة من المقامات ، وتذكّر ببعض تراثنا الأدبي الذي حفظ لنا الكثير من صور مجتمعاته .

الفصل الأول

من هو بديع الزمان ؟

موجز حياته : ولد أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد في « همذان » فنسب إليها ، ولقب ببديع الزمان ، وكني بأبي الفضل . وكانت ولادته سنة ٣٥٨ هـ .

ولم تكن همذان ولا غيرها دار مقام لبديع الزمان ، لأنه كان دائم التنقل كثير الترحال ؛ فلقد قصد « هَراة » سنة ٣٨٠ هـ وأقام فيها سنتين ، ثم غادرها إلى نيسابور ، وفيها بدأت مرحلة جديدة في حياة بديع الزمان ؛ إذ أنه اجتمع في نيسابور بأبي بكر الخُوارِزْمي وناظره ، وكان لهذه المناظرة في شهرته أثر بعيد ، كما أنه في نيسابور أيضاً أملى مقاماته ، وإلى هذه المقامات يعود الفضل الأول في شهرته الأدبية .

وعاد الهمذاني بعد ذلك إلى « هراة » حيث أصهر إلى أحد أعيانها ، وصارت له فيها أسرة وضياع وأملاك ، وبقي فيها حتى وافاه أجله فمات سنة ٣٩٨ هـ مسموماً أو بالسكتة القلبية ، وهو في الأربعين من عمره .

وروى ابن خلّكان عن الحاكم أنه لما مات الهمذاني عجّلوا بدفنه ، فأفاق في قبره ، وسُمع صوته بالليل ، ونبش عليه فإذا هو قابض على لحيته ميت من هول القبر[1] . وقد ترك وصية تدل على صدق إيمانه وحسن اعتقاده وبعده عن الزيغ وأهل البدع والأهواء[2] .

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٦٩ .

(٢) كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان ص : ٥٣٤ وما بعدها .

ونسبة « الهمذاني » دفعت بعض الناس إلى الظن أنه فارسي الأصل ، مع أنها نسبة إلى مكان ولادته ، أما نسبه فعربيّ مُضَريّ كما صرّح بذلك هو نفسه في إحدى رسائله إلى الفضل بن أحمد الاسفرائيني حيث قال : « اسمي أحمد ، وهمدان المولد ، وتغلب المورد ، ومُضَر المحتد » .

من اتصل بهم : وأشهر من اتصل بهم بديع الزمان من رجال عصره الصاحب بن عبّاد ، إذ ورد حضرته فتزوّد من ثمارها وحسن آثارها[1] ، وأبو الحسن أحمد بن فارس صاحب المجمل ، إذ أخذ الهمذاني عنه ، وروى عنه[2] ، وكذلك روى عن عيسى بن هشام الإخباري[3] .

واتصل بأبي سعيد محمد بن منصور فقرّبه وكرّمه . قال الثعالبي : « ثم قدم جرجان ، وأقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيّش في أكنافهم والاقتباس من أنوارهم ، واختص بأبي سعيد محمد بن منصور ... الذي أعانه على حركته إلى نيسابور وأزاح علله في سفرته »[4] . وقد ذكر ذلك أيضاً آدم متز وعلّق عليه بأن بديع الزمان « .. كان رجلاً يعرف دائماً أين تكمن القوى الكبرى والمال الأوفر .. »[5] .

واتصل الهمذاني بأحد أعيان « هَراة » وأثريائها وصاهره ، وهو أبو علي الحسين بن محمد الخشنامي الذي نعته الثعالبي بالفضل والكرم والأصالة ، ويبدو أنه كان غنياً ذا نفوذ ، وأنه كان لصهره بديع الزمان نصيب من غناه وكرمه

---

(١) معجم الأدباء ٢ : ١٦٥ .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٦٨ .

(٣) معجم الأدباء ٢ : ١٦٢ .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ١٦٤ .

(٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢ : ٥٠ .

فلقد أصبح بعد اتصاله به غنياً « وتعرّفت القرّة في عينيه والقوة في ظهره واقتنى بمعونته ضياعاً فاخرة وعاش عيشة راضية » .

اتصاله بالخُوارِزْمي : والحادثة التي أطارت صيت الهمذاني ونشرت اسمه في الآفاق هي مناظرته لأبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي ، وكان ذلك في سنة ٣٨٣ هـ أي في السنة التي مات فيها الخوارزمي كما روى البيهقي[١] .

كان الخوارزمي شيخاً جليلاً ، وعالماً فاضلاً ذائع الصيت ، لقيه الهمذاني في نيسابور ولم يلبث أن حصل بينهما شيء من الجفاء انتهى إلى تجرؤ البديع على مناظرة أبي بكر . وكانت هذه الجرأة وحدها كافية ليذيع اسم البديع ، فكيف إذا صحّ زعم قوم أن الغلبة كانت له أيضاً ؟

على أنه جدير بالباحث أن يتنبه إلى أن هذه المناظرة كانت بين رجل ذكروا أنه كان متعصباً لأهل الحديث والسنة[٢] ، وأن أخاه أبا الصفّار محمد بن الحسين كان مفتي همذان ، وبين آخر ميّال إلى الشيعة ؛ فقد يكون لهذين الاتجاهين المذهبيين أثر في تغليب البديع ومناصرته . ثم إن الخوارزمي كان شديد التعصب لآل بويه ، وكان يغضّ من سلطان خراسان ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه حتى حكم عليه من جراء ذلك بالسجن ، فسجن وأوشك على القتل [٣] . ولئن صدقت أقوال الهمذاني في قصيدته التي قالها في مديح الصحابة وهجاء الخوارزمي والردّ على طعنه في الصحابة ... ، لئن صدقت لقد كان الخوارزمي من غلاة الشيعة . وهي ـ على كل حال ـ أرجوزة في غاية الإقذاع أثبتها ياقوت في أخبار بديع الزمان[٤] .

---

(١) معجم الأدباء ٢ : ١٧٣ .

(٢) معجم الأدباء ٢ : ١٦٢ .

(٣) يتيمة الدهر ٤ : ١٢٦ (ط محي الدين ٤ : ٢٠٨) .

(٤) معجم الأدباء ٢ : ١٩٦ .

ومهما يكن من أمر هذه المناظرة فإنها كانت سبباً لهبوب ريح الهمذاني وعلوّ أمره ، إذ لم يكن في الحساب أن أحداً من العلماء ينبري لمساجلة الخوارزمي ، فلما تصدّى الهمذاني لمباراته ، وجرت بينهما مقامات ومبادهات ومناظرات ، وغلَّب قومٌ هذا ، وغلَّب آخرون ذاك ، طار ذكر الهمذاني في الآفاق ، وشاع ذكره في الأُفُق ، ودرّت له أخلاف الرزق ، فلما مات الخوارزمي خلا له الجوّ[1] . ولا يخفي الثعالبي أن قوماً من الوجوه أعانوا البديع على الخوارزمي ، فيقول في معرض حديثه عن أبي بكر : « ورُمي في آخر أيامه بحجر من الهمذاني الحافظ البديع ، وبلي بمساجلته ومناظرته ومناضلته ، وأعان الهمذاني الحافظ البديع عليه قوم من الوجوه كانوا مستوحشين منه جداً ، فلاقى ما لم يكن في حسابه »[2] .

وحق ما قاله الثعالبي ؛ فلقد بُلي الخوارزمي بمناظرة ما كان أغناه عنها وأزهده فيها ، وإن من يقرأ الرسائل المتبادلة بينه وبين البديع[3] يشعر أن الهمذاني متربص يحثّ ويستفزّ ، وأبو بكر صلب القناة ، رحب الصدر ، أنِفٌ ؛ يريد إسكات خصمه دون استعطافه ، إنه شيخ العصر وعظيم أهل العلم يقول : « وإني لمشتاق إلى ظلّ

رجلٍ يوازنك المودَّة جاهداً ... يعطي ويأخذ منك بالميزان
فإذا رأى رجحان حبّة خردلٍ ... مالت مودّته مع الرجحان

وقد كان الناس يقترحون الفضل ، فأصبحنا نقترح العدل ، وإلى الله

---

(١) معجم الأدباء ٢ : ١٦٦ .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ١٢٧ .

(٣) هذه الرسائل سبع ؛ خمس منها صادرة عن الهمذاني وثنتان صدرتا عن الخوارزمي وهي بمجموعها في معجم الأدباء ٢ : ١٨٥ ـ ٢٠٢ .

المشتكى لا منه » . وكلام الخوارزمي في رسائله يلين ويخشن ، فهو يريد مودة الهمذاني لا مخاصمته ، ولكنه يعزّ عليه التصريح فيقول : « والشوق الذي ذكره سيدي ـ يعني الهمذاني ـ فعندي منه الكثير الكبير ، وعنده منه الصغير اليسير . وأكثرنا شوقاً أقلّنا عتاباً وألياننا خطاباً . ولو أراد سيدي أن أصدّق دعواه في شوقه إليَّ ليغض من حجم عتبه عليَّ ، فإنما اللفظ زائد واللحظ وارد ، فإذا رق اللفظ دقّ اللحظ ، وإذا صدق الحب ضاق العتاب والعتب .

فبالخير لا بالشرّ فارجُ مودّتي وأي امرئ يُعتاد منه الترهّب

عتاب سيدي قبيح ولكنه حسن ، وكلامه لين ولكنه خشن ؛ أما قبحه فلأنه عاتب بريئاً ، ونسب إلى الاساءة ما[1] لم يكن مسيئاً ، وأما حسنه فلألفاظه الغرر ، ومعانيه التي هي كالدرر ، فهي كالدنيا ؛ ظاهرها يغرّ وباطنها يضرّ ، وكالمرعى على دمن الثرى ؛ منظره بهيّ ومخبره وبيّ ، ولو شاء سيدي نظم الحسن والإحسان ، وجمع بين صواب العقل واللسان »[2] .

ونرى من خلال ما دار بينهما أن الهمذاني ذكيّ ، حاضر البديهة سريع الجواب ، وأنه ذو لباقة يعرف معها كيف يستميل القوم إليه على اختلاف أهوائهم ؛ إنه مثلاً يمدح آل البيت بقصيدة يستميل بها أحد الأشراف ممن حضر مجلس المناظرة ، ويلجأ إلى السخرية بخصمه بغية الحطّ من قيمته في أعين الناس .

ولن أتحدث هنا عن أدب الهمذاني ، فإن لذلك موضعه من البحث ، ولكنا نبادر إلى ذكر ما وصفوه به من ذكاء نادر وحافظة غريبة وروح مرحة ...

---

(١) كذا في الأصل ولعلها : مَنْ .

(٢) معجم الأدباء ٢ : ١٩٣ .

مذهبه : لقد كانت الفترة التي عاش فيها بديع الزمان فترة صراع عنيف بين الطوائف المختلفة وأتباع المذاهب المتعددة ، على نحو ما سنرى في الفصل الثالث من هذا البحث . وغير خاف أن جانباً كبيراً من هذا الصراع كان بين المسلمين من سنة وشيعة ، وأن تطرّف إحدى الفئتين كان يؤدي دوماً إلى بعد الشقة بين الطرفين وازدياد الجفاء بينهما .

ويحرص أصحاب التراجم عادة على ذكر مذهب من يترجمون لهم ، وخصوصاً إذا كان هؤلاء ممن عاشوا في فترة من فترات الصراع المذهبي كتلك التي عاش فيها بديع الزمان . وكان ياقوت ممن ذكروا مذهب الهمذاني فقال في ترجمته : « كان شديد التعصب لأهل الحديث والسنة »[1] . ولعلّ هذا التعصب ، من ناحية ، وما وقع بينه وبين الخوارزميّ ، من ناحية ثانية ، جعل بعض الناس يتهمونه بكره آل البيت حتى اضطر إلى الدفاع عن نفسه وإنكار هذه التهمة وذلك في قصيدة يقول فيها[2] :

يقولون لي : لا تحبّ الوصيّ ... فقلت : الثرى بفم الكاذب
أحب النبيّ وأهل النبيّ ... وأختص آل أبي طالب
وأعطي الصحابة حق الولاء ... وأجري على السَّنن الواجب
فإن كان نصباً ولاء الجميع ... فإني ـ كما زعموا ـ ناصبي
وإن كان رفضاً ولاء الوصيّ ... فلا يبرح الرفض من جانبي
أيرجو الشفاعةَ من سبَّهم ... بل المثل السوء للضارب
أعزّ النبيَّ وأصحابه ... فما المرء إلا مع الصاحب

---

(١) معجم الأدباء ٢ : ١٦٢ .

(٢) ديوان الهمذاني : ٨ .

ومع ذلك لم يسلم من الاتهام ؛ فقد ادعى الخوارزمي أن البديع أشعري[1] وذلك حين كتب إليه : « وتكليف المرء مالا يطيق يجوز على مذهب الأشعري ، وقد زاد سيدي على أستاذه الأشعري ... »[2] وهذه التهمة ألصقها الخوارزمي بالبديع لأنه يزعم أن البديع حين يعاتبه على التقصير في إكرامه ، يكلّفه مالا يطيق ، فهي تهمة في معرض الدفاع ، ولم يفصّل في الحديث عن أشعريّة البديع أحد ، ولم يذكرها سوى ياقوت حين قال عن الهمذاني إنه « كان ثقة في الحديث ويُتهم بمذهب الأشعرية »[3] .

وما دمنا بصدد علاقة الهمذاني بالخوارزمي فمن حق البديع علينا أن نذكر له ـ إلى جانب عتبه القاسي على الخوارزمي ـ نبله معه في مواقف أخرى ؛ من ذلك أن بعض أعداء الخوارزمي لمّا علموا بمرضه كتبوا إلى الهمذاني يبشّرونه بمرض خصمه ، فكتب إليهم كتاباً كله نبل وحكمة ، ومنه قوله : « والشامت إن أُفلت فليس يفوت ، وإن لم يمت فسيموت . وما أقبح الشماتة بمن أمن الإماتة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة ؟ » ثم يقول : « وهذا الفاضل ، شفاه الله ، وإن ظاهر بالعداوة قليلاً فقد باطنّاه ودّاً جميلاً . والحرّ عند الحميّة لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد . فلا تتصوّر حالي إلا بصورتها من التوجّع لعلّته ، والتحزّن لمرضته . وقاه الله المكروه ، ووقاني سماع السوء فيه ، بمنّه وحوله ولطفه وطَوله »[4] .

---

(١) الأشعرية مذهب وسط بين المعتزلة الذين ينفون الصفات وبين المجسّمة . وينسب هذا المذهب إلى أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري (٢٦٦ ـ ٣٣٣ هـ) .

(٢) معجم الأدباء ٢ : ١٩٤ .

(٣) معجم الأدباء ٢ : ١٦٢ .

(٤) كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان : ١٧٦ وزهر الآداب ١ : ٤٦٣ .

ثم لما مات الخوارزمي رثاه الهمذاني بأبيات رأى الثعالبي فيها دسّاً وسعاية[1] ، وقد يرى غيره فيها شيئاً من النبل والندم ، ومنها قوله[2] :

تحمّلت فيك من الحزن ما ... تحمّله ابنك من صامت
حلفتُ لقد متَّ عن معشرٍ ... غبيّين عن خطر المائت
يقولون : أنت به شامت ، ... فقلت : الثرى بفم الشامت
وعزّت عليَّ معاداته ... ولا متدارك للفائت

خلاصة : وبعد فلست أريد أن أستطرد في الحديث عن هذا الكاتب الأديب وحياته ، وإنما جمعت بعض ما تفرّق من أخبار حياته ، وصلاته برجالات عصره ، وكل الذي يعنينا من هذه الحياة التي عاشها أبو الفضل هو أنه كان كثير التنقل بين البلدان المختلفة ، وقد تصرّفت به أحوال جميلة وأسفار كثيرة ، ولم يبق من بلدان خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها وجنى وجبى ثمرتها واستفاد خيرها وميرها[3] ، وأنه أكثر من مخالطة الناس ، وأيّ مدرسة أوسع من مدرسة الحياة الواقعية الواسعة يسافر فيها بين البلدان ويخالط البشر بجميع طبقاتهم رجل ذكيّ حفّاظ كأبي الفضل بديع الزمان ؟ ولذلك فلا عجب إذا رأيناه يقدّم لنا بعض الصور الطريفة عن الحياة التي بلاها والمجتمع الذي خالط أبناءه .

وإن حياته - وإن لم تطل - قد كفته لمطاولة شيوخ عصره الذين أحبَّه بعضهم فقرّبه ، أو رهبه فتجنّبه ، كما كفته لتخليد اسمه بفضل ما ترك في ميدان الأدب ، شعره ونثره ، من آثار ، وإن كان شعره دون نثره جودة وإتقاناً .

---

(١) يتيمة الدهر ٤ : ١٢٧ .

(٢) ديوان الهمذاني : ١٢ .

(٣) يتيمة الدهر ٤ : ١٦٨ .

مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق

كل ذلك إلى جانب أنه فتح باب فنّ جديد هو فنّ المقامة في الأدب العربيّ . ونحن ، بصرف النظر عن طبيعة هذا الفن المقيّدة ، وعدم قابليتها لمسايرة التقدم الفكري والتعبير عن أعماق النفس وجمحات الفكر ، لا نستطيع إلا أن نعجب به فنّاً يتطلب وفرة في المحفوظ ، ومعرفة باللغة ، وقوة في الذاكرة ، وسلامة في الذوق ، وخفة في الروح ، وإلاّ كان سمجاً على النفس ، ثقيلاً على الأذن ، غليظاً على الروح .

تأليف المقامات وعددها : يرى أكثر الباحثين أن بديع الزمان ألّف مقاماته مقلّداً أو معارضاً ابن دريد في أحاديثه الأربعين ، وقد قال بهذا صاحب زهر الآداب كما قال به بعض المحدثين . أما « زهر الآداب » ففيه أن بديع الزمان « لما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، وانتخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر ، في معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ... عارضه بأربعمائة مقامة في الكُدية ، تذوب ظُرفاً وتقطر حسناً ... »[1] .

وأما الدكتور شوقي ضيف فيظن أن بديع الزمان كان يعرض على طلابه أحاديث ابن دريد[2] . وهو يربط بين العملين فيقول « وقد رأينا أن كلمة مقامة معناها حديث ، وفي هذا ما يربط أدقّ الربط بين العملين ، ويستطيع القارئ أن يرى ذلك في وضوح إذا رجع إلى كتاب الأمالي لأبي علي القالي ، وهو الكتاب الذي يحتفظ بأحاديث ابن دريد الأربعين . ولا تدور هذه الأحاديث على الكدية ، كما هو الشأن عند بديع الزمان ، ومع ذلك فالصلة

---

(١) زهر الآداب ١ : ٢٢٥ .

(٢) المقامة : ١٦ .

بين العملين واضحة ؛ وذلك أن أحاديث ابن دريد تصاغ في شكل رواية وسند يتقدمها ، ثم هي غالباً مسجوعة ، وتمتلئ باللفظ الغريب . فهي أحاديث أُلّفت لغرض تعليم الناشئة اللغة ؛ بالضبط كما حاول بديع الزمان في أحاديثه ، وإن كانت خفيفة رشيقة »[1] . ثم يعود الدكتور ضيف إلى القول : « على كل حال أنشأ بديع الزمان مقاماته معارضة لأحاديث ابن دريد ، وإن من يقرأ الأمالي ويتعقب بديع الزمان في عمله ، يرى الصلة واضحة تمام الوضوح بين الصنيعين ، وإن المقامة الأسدية عنده لتعدّ صيغة نهائية لصفة الأسد في ذيل الأمالي ، وكذلك الشأن في المقامة الحمدانية وما جاء بها من صفة الفَرَس فإنها تكميل وتتميم لما جاء في الأمالي من وصف الفرس ، وكثير من الأدعية والمواعظ في المقامات يتصل اتصالاً مباشراً بما في الأمالي ، ونفس الحكم والأمثال والوصايا كل ذلك نجد صوره واضحة عند بديع الزمان ... وليس ذلك حسب ، فقد تكون الفكرة التي أدار حولها مقاماته ، ونقصد الكدية أو الشحاذة ، استمدها مباشرة من خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام التي رواها صاحب الأمالي عن ابن دُريد .

ومعنى ذلك أن الأدلة كثيرة على أن بديع الزمان تأثر بابن دريد في مقاماته ، وأنه عارضه بها معارضة . على أنه ليس وحده الذي ألهم البديع مقاماته ، فهناك عمل آخر للجاحظ أثر فيه أثراً بليغاً ؛ إذ تحدث في بعض كتبه عن أهل الكدية حديثاً طويلاً وقصّ نوادرهم ... »[2] ويلخص الدكتور ضيف رأيه فيقول : « ومعنى ذلك أننا نظن ظناً أن البديع قد استوحى في عمله ما كتبه الجاحظ وقصّه عن أهل الكدية ، كما استوحى في عمله أيضاً ما

---

(١) المقامة : ١٧ .

(٢) المقامة : ١٨ .

كتبه ابن دريد من أحاديثه المعروفة في كتاب الأمالي . فهو قد اطلع على العملين ، ومن غير شك يعلو في التأثير فيه العملُ الأول على العمل الثاني ؛ فابن دريد وجّهه ليكتب أحاديث تعليمية ، أي أنه أثر فيه من جهة الشكل ، أما الجاحظ فأثر فيه من جهة الموضوع ، إذ جعله يدير أحاديثه أو مقاماته على الكدية »[1] .

ويتعرّض الأستاذ مارون عبود لهذا الموضوع في كتابه « بديع الزمان الهمذاني » فينكر أن يكون لغير البديع يد في خطة المقامات ، ويقول : « إن خطة المقامات هي من عمل البديع ، فلا لابن فارس ولا لابن دريد يد في صنعها . فالهمذاني هو الذي ألبسها هذا الطراز الموشّى ، وعلى طريقه هذه التي شقها سارت عجلة الأدب ألف عام . فعبثاً نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع »[2] . ولكن الأستاذ عبود يؤيد ما سبق أن ذكره الدكتور ضيف من تأثر البديع بالجاحظ في موضوع المقامات[3] .

وأما عدد المقامات فقد ذكر مؤلفها في إحدى رسائله أنها أربعمائة مقامة ، وذلك حين كتب إلى أبي بكر الخوارزمي في إحدى رسائله « ... فيعلم أن من أملى من مقامات الكدية أربعمائة ، لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيق بكشف عيوبه ، والسلام » . وبمثل هذا العدد صرّح الثعالبي في اليتيمة والحصري في زهر الآداب . ولكن الباحثين اليوم ينكرون هذا العدد الضخم ويرونه محرّفاً عن الأربعين ، ويعزو الدكتور ضيف هذا التحريف إلى غلط الناسخ ويقول : « مجرد معارضة بديع الزمان

---

(١) المقامة : ٢٠ وانظر « الفن ومذاهبه في النثر العربي » للدكتور ضيف أيضاً ص ٢٤٨ .

(٢) بديع الزمان الهمذاني : ٣٤ .

(٣) المصدر السابق : ٣٤ ـ ٣٧ .

لابن دريد في أحاديثه الأربعين يقتضي أن تكون أحاديثه أو مقاماته أربعين أيضاً . ويظهر أنه صنع في نيسابور أربعين مقامة فقط ، ثم رأى أن يزيد عليها مقامات أخرى بعد مبارحته لها ، فزاد ستاً في مديح خلف بن أحمد في أثناء نزوله عنده ، كما زاد خمساً أخرى ، وبذلك أصبحت المقامات نيّفاً وخمسين »[1] . وإلى مثل ذلك أيضاً ذهب الدكتور عزة حسن في كتابه عن المقامات[2] . وليس لدينا ما يمنع من الأخذ بهذا الرأي ما دامت المقامات التي وصلت إلينا لم تتجاوز هذا العدد الذي قدروه ، وما دام أحد من القدماء لم يأت بشيء زائد عليها .

مارون عبود والهمذاني ـ نقد ورد

للأستاذ مارون عبود كتيب عنوانه « بديع الزمان الهمذاني » وهو الكتيب التاسع في سلسلة (نوابغ الفكر العربي) التي تصدرها دار المعارف .

وقد رأيت لزاماً عليَّ ، قبل أن أنتقل إلى الفصل الثاني من هذا البحث ، أن أقف عند بعض الشكوك الكثيرة التي نثرها الأستاذ مارون في كتابه المذكور ، وسأقتصر منها على ما له صلة بموضوعنا .

١ ـ يشك الأستاذ في اسم بديع الزمان « أحمد » .

٢ ـ يشك في اسم أبيه « الحسين » .

٣ ـ ينكر نسبه العربيّ .

٤ ـ ينكر ما يتصل بأخبار حافظته القويّة .. وحافظة غيره أيضاً .

---

(١) المقامة : ١٧ ـ ١٨ .

(٢) بديع الزمان الهمذاني : عصره ، حياته ، مقاماته . وهو الكتاب الذي قدّمه لنيل درجة الدكتوراه وقد تفضل باطلاعي عليه .

٥ ـ يحكم على بديع الزمان بالتأثر بالإسماعيلية وفلسفتهم الباطنيّة[1] .

☆ يقول الأستاذ بصدد اسم بديع الزمان : « واتفاق اسمه مع اسم أبي الطيب يوقظ في نفسي الشك ... » ثم يقول : « ولعل هذا الشك قد تسرّب إليها من قراءتي أولى رسائله الموجّهة إلى الفضل بن أحمد الاسفرائيني .... قال البديع في رسالته إلى الاسفرائيني : إني عبد الشيخ واسمي أحمد ، وهمذان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد » . ولو سألنا الأستاذ عما أيقظ في نفسه الشك ؟ وما في كلام البديع مما يوقظ الشك ؟ لاستعان بشك آخر فجعله دليلاً « جازماً » على شكه الأول فقال : « ومن يصل بنسبه إلى مُضَر وهو فارسي لا شك فيه ، لا يبعد أن يطبّق المفصل ليكون له اسم شاعر الدهر أبي الطيب ...

وهكذا وبجرّة قلم وشطحة فكر ينسف الأستاذ مارون اسم الرجل ونسبه ، ولا دليل عنده سوى الشك يستدلّ به على الشك ، وهو لا يقترح اسماً آخر لبديع الزمان لأنه لم يجد مصدراً واحداً يعينه على ذلك ، وحسبه أنه « أثبت » كذب الرجل في نسبه ومن يكذب في نسبه فغير بعيد أن يغيّر اسمه ! وهذا النسب الذي يقول عنه الأستاذ مارون إنه « فارسي لا شك فيه » يقول فيه الدكتور شوقي ضيف : « وفي رسائل بديع الزمان المطبوعة دلالات مختلفة على أنه من أسرة عربية كريمة استوطنت هناك » ثم ينقل الدكتور ضيف نسب بديع الزمان ويقول : « فهو ليس فارسياً ، كما قد يُظن ، وإنما هو عربيّ مُضَريّ تغلبيّ » .

---

(١) هذه الشكوك الخمسة وغيرها أيضاً وردت جميعها في صفحتين فقط هما الصفحتان : ١٦ و١٧ من كتاب « بديع الزمان الهمذاني » لمارون عبود .

وقد كنا نتمنى لو أن الأستاذ مارون رأى رأيه وترك المجال « للشك فيه » إذ هو عند غيره يقين لا شك فيه ! وإذا انتفى أن يكون البديع فارسياً فقد سقط دليل الأستاذ في تغيير اسمه موافقة منه لاسم شاعر الدهر ...

☆ وأما الشك في اسم أبيه فليس دليل الأستاذ عليه بأقوى من دليله الأول فهو يقول « أما الذي جعلني أشك في اسم أبيه أيضاً ، فهو قول الحاكم أبي سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست جامع رسائل البديع ، قال حين بلغ الرسائل التي تبادلها البديع وأبوه : (ولوالده إليه كتب ورقاع أنشأها هو ـ أي البديع ـ ونسبها إلى والده ليقرأها الأفاضل من الكتاب فيستدلّوا بها على فضل والده) » . يقول الأستاذ عبود : « ومن يفعل هذا ، كما قال معاصره ، لا يخشى التصرّف باسمه واسم أبيه ليأتي اسمه كما يتمنى ويرغب . وهب هذا هو اسم أبيه فلا شك عندي في أنه بدون أل ، أعرف جيداً أن الاسم لا يقدّم ولا يؤخر ولكنها فكرة عرضت لي فلم أبقها في صدري » !!

وليت الأستاذ أبقى فكرته العارضة في صدره لأنها في الحقيقة تقدّم وتؤخر ، إذ لو ثبت تغيير الاسم لجاز أن نبحث عن العلّة والدافع ، أو لجاز أن يزعم بعض الناس أنه غيَّر اسمه تخلّصاً من نسبه ، على عكس ما فعل الأستاذ . ثم هل في اتهام البديع بنحل الرسائل لوالده دليل على تغيير اسم الوالد ، وهل يعني « عدم خشيته » من نحل الرسائل عدمَ خشيته من تغيير الاسم ؟ وعدم الخشية من تغيير الاسم هل يَعني أنه غيَّره فعلاً ؟

ثم أليس بين الناس من يعرف اسم الأب قبل أن يكبر الابن فيغيّر له اسمه ؟ ثم هل في المصادر التي نعرف ويعرف الأستاذ مصدر واحد يشير إلى ذلك ؟

☆ وننتقل إلى شك الأستاذ في الأخبار المرويّة عن حافظة بديع الزمان فنراه يقول : « وهب ذاكرة قوية وحافظة نادرة ، فكان قفلة لا يفلت من خاطره ما يعلق به . ولعل هذا هو الذي حمل معاصريه على القول فيه : (إنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط ، وهي أكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم منها حرفاً . وينظر في أربع أو خمس أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره ، نظرة واحدة ثم يمليها عن ظهر قلبه ، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطوره ثم هلّم جرّاً إلى الأول ، ويخرجه كأحسن شيء وأملحه) . ثم يقول : « إنها مبالغات نسبوا مثلها إلى المتنبي والمعري وأبي تمام ، وهي عندي إلى الحكايات أقرب منها إلى التاريخ الرصين ، فليست الأذهان دفاتر ، ولا آلات تصوير شمسية حتى تحفظ وتلتقط آثار الأدباء كما هي » .

وللأستاذ مارون رأيه في هؤلاء النوابغ من أعلام الأدب العربي وله « حسن » ظنه في ذكائهم وذاكرتهم ، ولنا رأينا وظننا . ولكنا نعجب كيف يقبل الأستاذ بالشك وحده دليلاً ويرفض آراء « المعاصرين » وقد أجمعت آراؤهم وتواترت رواياتهم عن ذكاء هؤلاء الأعلام ؟ أفنقبل الشك أو الرأي متفقاً مع الهوى ونرفض الآراء إن جاءت على مالا نحب ونهوى ؟

ولو أن في البحث مجالاً لذكّرت الأستاذ بما يعرفه من علم النفس من أن قيام عضو من الأعضاء بوظيفته إنما يعود عليه بالقوة والنماء ، وأن الحياة في عصر أولئك الأذكياء الذاكرين كانت تجبرهم على استعمال عقولهم والاعتماد على حافظاتهم أكثر مما تضطرنا حياتنا الآن إلى الاعتماد على الدفاتر والمفكرات وآلات التصوير الشمسية .

☆ وأما تأثر بديع الزمان بالباطنية فيقول الأستاذ مارون بصدده : « ثم غادر - أي البديع - حضرة الصاحب وقصد جرجان ، حيث خالط علماءها وهم من الإسماعيلية ، فعاش بينهم حيناً مقتبساً من علومهم وفلسفتهم الباطنية » .

ولا شك أن الأستاذ يعوّل في دراسته هذه على ما قاله الثعالبي وغيره من أن بديع الزمان اتصل في جرجان بالإسماعيلية وعاش في أكنافهم ...[1] والذي ذكره الثعالبي وأخذه عنه آدم متز كما رأينا غير الذي فهمه الأستاذ عبود ؛ إذ أن « الإسماعيلية » أسرة معروفة في جرجان ذات جاه ومال ونفوذ ، وليست هي نسبة إلى المذهب الإسماعيلي كما توهّم الأستاذ . ثم إنه لا يكتفي بذلك بل يقفز بسرعة عجيبة ليجعل بديع الزمان متأثراً بالفلسفة الباطنية ، وهذا لم يقل به أحد لا من القدماء ولا من المحدثين ، بل كيف يجوز مثل هذا القول وهم قد وصفوه بالبعد عن الزيغ وأهل الأهواء[2] ؟ وقالوا إنه كان شديد التعصّب لأهل السنة والحديث وإن أخاه كان مفتي همذان[3] ..؟

وجملة القول إن من يقرأ ما كتبه الأستاذ مارون عبود عن بديع الزمان يشعر بكره الكاتب للهمذاني ، وبتسرّعه في الحكم عليه ، ويشعر أن الكاتب لم يستطع أن يكتم كرهه له ، بل كان ينفّس عنه بين الحين والحين ، وهو يطالعك في أول الحديث عن بديع الزمان بقوله : « أما لقب بديع الزمان

---

(١) انظر ما سبق في ص : ١٢٩ .

(٢) سبق ذكر ذلك في ص : ١٢٩ .

(٣) هو أخوه لأبيه وأمه ، واسمه محمد بن الحسين بن يحيى ... أبو سعد . وانظر معجم الأدباء ٢ : ١٦٢ ولسنا ندري بهذه المناسبة أهو ابن أبيه قبل أن يغيّر أخوه البديع اسم أبيه أم بعده ؟

فلست أدري كيف أحرزه ، ما أحسب هذا اللقب إلا من صنعه أو من صنع صاحب اليتيمة لكي تتمّ له السجعة ويقول : هو بديع الزمان ومعجزة همذان ... » على أن نفسيّة الناقد الأديب تتغلّب على عاطفة الأستاذ نحو البديع فيتحدث عن أدبه وفنّه حديث المعجب ويجعله سيّد القلم[1] .

(١) بديع الزمان : ٤٥ .

الفصل الثاني

أدب الهمذاني وموضوعات مقاماته :

تنحصر آثار الهمذاني الأدبية في مقاماته ورسائله وديوان شعره . أما المقامات فقد رأينا أنه أملاها في نيسابور ، ورأينا ما قيل في سبب وضعها وسبقه إليها .

وجدير بنا أن نعرف أن المقامات المطبوعة[1] ناقصة ؛ فبعضها لم يطبع لما فيه من فحش وبذاءة ، وبعضها طبع ناقصاً كما هو الأمر في المقامتين الشيرازية والدينارية .

قال شارح المقامات الأستاذ الشيخ محمد عبده : « وها هنا ما ينبغي التنبيه عليه وهو أن في هذا المؤلَّف من مقامات البديع رحمه الله افتناناً في أنواع من الكلام كثيرة ، ربما كانّ منها ما يستحي الأديب من قراءته ، ويخجل مثلي من شرح عبارته ، ولا يجمل بالسذّج أن يستشعروا معناه ، أو تنساق أذهانهم إلى مغزاه ، وأعوذ بالله أن أرمي صاحب المقامات بلائمة تنقص من قدره ، أو أعيبه بما يحطّ من أمره ، ولكن لكل زمان مقال ، ولكل خيال مجال . وهذا عذرنا في ترك المقامة الشامية ، وإغفال بعض جمل من المقامة الرصافية وكلمات من مقامات أخرى .. »[2] .

---

(١) نعني طبعة الأستاذ الشيخ محمد عبده ، وهي التي اعتمدنا عليها في هذا البحث .

(٢) مقدمة المقامات : ٧ .

معنى المقامة : قد تدل كلمة « المقامة » على مكان وقوع الحادثة التي يرويها بديع الزمان كالمقامة البغدادية والأصفهانية والبصرية والقزوينية ... وقد تدلّ على موضوع الحادثة كالمقامة الأسَدية والدينارية والحِرزية . وهي ، سواء دلت على هذا أو ذاك ، عبارة عن قصة قصيرة . على ألاّ يذهب بنا الظن إلى أنها حوت شروط القصة الفنيّة ، وإن كان بعضها قد بلغ في هذا المجال مبلغاً جيداً كالمقامة المضيرية التي يقول الأستاذ مارون عبود بصددها : « وتمرّ بمقامات البديع فتعجب بالمقامة المضيرية إذ تراها قصة عصرية قد تنوء عن مضارعتها اليوم قصة في تحليل الشخصيات ودرس النفسيات »[1] . وأكثر ما تقوم عليه القصة عند الهمذاني أسلوب الحديث السرديّ يرويه لك عيسى بن هشام ، ولعل هذا ما دعا الدكتور شوقي ضيف إلى القول إن كلمة « المقامة » عند الهمذاني قريبة المعنى من كلمة « حديث »[2] وغالباً ما تدور هذه الأحاديث حول الكُدية ، وقد رأينا ذلك سبباً دعا إلى الربط بين عمل البديع وعمل الجاحظ[3] وأعمال المكدين فيها قائمة على المكر والخديعة .

وللمقامات أسلوبها الخاص ، تتحكم فيها الصنعة ويقيّدها فن البديع ولا سيا السجع والجناس ، ويكثر فيها الاقتباس والتضمين للأمثال والأشعار وأنصاف الأشعار ، وتستخدم فيها الصور البيانية ، وغالباً ما يختها الهمذاني بأبيات من الشعر تلخّص المغزى منها ، وهو على الغالب مغزى غير خلقي ما دام إيجازاً لقانون السلب والمكر والخديعة ...

وأهم من ذلك كله أن الهمذاني أنطق عيسى بن هشام ، راويته ، وأبا

---

(١) بديع الزمان الهمذاني : ٣٦ .

(٢) المقامة : ٨ .

(٣) انظر ما سبق في ص : ١٥ .

الفتح الإسكندري ، بطله الخيالي ، بكثير من أوصاف الحياة التي عاشها كل منهما ، وجعلها يرسمان صورة قريبة من الواقع للمجتمع الذي ضمّها وضمّ الهمذاني معها ، ولعل أوضح جوانب الصورة التي سنرى في المقامات جانب البؤس والفقر الذي وصفه أبطال المقامات ، وجانب الأخلاق الفاسدة التي ابتدع أصحابها أروع ضروب المكر والدهاء في سبيل الوصول إلى القوت أو المال ...

زد إلى ذلك ما أضفاه أبو الفضل الهمذاني على المقامات من مرح نفسه وخفّة روحه ، حتى جاءت متعة مسليّة أغرت الناشئين بحفظها بما فيها من مفردات وعبارات وصور ، وشغلت الكثيرين بما فيها من ظرف وفكاهة عما تطويه في ثناياها وتحمله معها من تصوير للحياة .

رسائله : رسائل بديع الزمان هي الكتب التي بعث بها إلى أهله وإخوانه وأصدقائه ، وحدثهم فيها عن شوقه أو حياته ، أو قصّ لهم فيها بعض ما جرى له من أمور[1] . وهي رسائل فيها المديح وفيها الشكر وفيها الاستعطاف وفيها السّباب وفيها الهجاء المرّ . والهمذاني فيها مبالغ في كل ما يقول ؛ إن مدح فمديحه لا تسعه الأرض والسماء . وإن هجا سقى كأس الحنظل وأطعم القذر بالخردل .

وأما أسلوب الرسائل ففوق أسلوب المقامات صنعةً وتزويقاً ، وزخرفة وتنميقاً . وللهمذاني فيها تلاعب بالألفاظ عجيب ، حتى أن الخوارزمي سماها « شعبذة لفظية » ، وما عرفنا كاتباً ينقاد له الجناس انقياده للبديع في هاتيك الرسائل ، ولعل أروع من الجناس في الرسائل ، بل أروع من الصنعة اللفظية

---

(١) كشف المعاني : ١٥١ .

فيها ، ما يشغلك به البديع من المعاني حتى تندمج معه فتضحك للهوه ، وتسخر لهزئه ، وتضجّ لتذمّره وشكواه .

ديوانه : ديوان الهمذاني[1] صغير الحجم ، ولكنه يحتوي على كثير من أغراض الشعر ؛ ففيه المديح وفيه الهجاء وفيه الرثاء وفيه الاعتذار وفيه الفخر ... وقد يتظرف الهمذاني في بعض قصائده فيخلط العربي بالفارسيّ ، وذلك أثر من آثار الثقافة الفارسية ، عرفناه عند غيره أيضاً من الكتّاب والشعراء من أبناء ذلك العصر .

على أن الجدير بالذكر أن الهمذاني لم يبلغ في الشعر ما بلغه في النثر من إجادة ونجاح .

خصائص أدبه : يقول الأستاذ مارون عبود : « لو أنصف الذين قسموا ميراث الأساليب القديمة لما حرموا البديع هذه الإمامة ، بل كان هو رأس هذه الطبقة لا ابن العميد . قال القدماء : بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد . وأين ابن العميد من نابغتنا هذا ؟ »[2] والحق أن للهمذاني في الذين جاؤوا بعده أثراً لا ينتهي ؛ فلقد انسحب الكتّاب على ذيل أسلوبه حتى مطلع عصرنا الحديث ، ومع ذلك لم يبلغ أحد منهم في تصوير الشخوص ، وبعد الخيال ، وخفة الروح ، وإتقان الفن ، ما بلغه البديع .

لقد كان الهمذاني كاتباً صَناعاً حذق « صنعة » اللغة ، وحفظ مفرداتها ، وأتقن رصفها ، فكان كصانع الفسيفساء المفَنّ يأتي بقطعه الملوّنة البرّاقة فيعرضها عليك فتسرك ، ثم يغيّر تركيبها ويعيد عرضها فتسرّك أيضاً ، ثم

---

(١) طبع في مصر سنة ١٩٠٣ باسم « ديوان البديع » .

(٢) بديع الزمان : ٤٢ .

يغيّر ويغيّر ويتلاعب بها كما يشاء له فنّه وذوقه فإذا هو ماهر في عرضه حاذق في تركيبه . وإلاّ فكيف نفسّر تحدّيه للخوارزمي حين ذكر له أنه يستطيع أن يكتب كتاباً يُقرأ منه جوابه ، أو كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله ، أو كتاباً إذا قُرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً فإن عكست سطوره مخالفة كان جواباً[1] ... ؟ أليس هو في هذا كالرسّام يقدّم لك الصورة فتتعرف فيها على شكل ثم يقلبها لك فإذا هي في وضعها الجديد صورة جديدة لشكل جديد ...

لقد كانت رسائل الهمذاني ومقاماته كنزاً لغوياً بما حوت من مفردات اللغة غريبها ومترادفها ، ومعرضاً بلاغياً بما حوت من صور وتشبيهات واستعارات . كما كان فيها الكثير من الحكم والأمثال والأشعار .

يقول الدكتور شوقي ضيف : « إن الهمذاني كان بحق أحد أساتذة مذهب التصنيع ، ومقدمة من مقدّمات التصنّع بل إنه كان من أهم من رشّحوا لمذهب التصنّع وظهوره »[2] إن قبلنا هذا التصنّع والتصنيع .

ويقول الأستاذ مارون عبود إن الهمذاني « لم ينفرد في مقاماته أكثر من تفرده في رسائله التي بلغ فيها مالم يبلغه أكابر الشعراء الهجائين العرب . فهو يمجن ويمزح ، ويتهكم ويكشف العورات ليكون له في كل عرس قرص ، ويرينا أنه ذلك القادر على القول في كل غرض ومطلب ، إنه في مجونه وهجائه مرّ موجع ، وهو فيهما أقرب إلى بشار منه إلى أبي نواس الخفيف الظل . ولكن نفس البديع نفس فنان أصيل يعرف كيف يبتدئ وكيف ينتهي وله كلمات مسكتة ونهايات طريفة »[3] .

---

(١) كشف المعاني والبيان : ٧٤ .

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي : ١١٥ .

(٣) بديع الزمان : ٤٤ ـ ٤٥ .

موضوعات مقاماته : وأما الموضوعات التي تتناولها مقامات الهمذاني فكثيرة مختلفة ، ويمكن أن نعدّد منها ـ دون حصر ـ : الحديث عن مجالس القوم سواءاً كان المجلس للأدب أم للسمر أم للطعام والشراب أم للّهو والطرب ... والحديث عن هيئات الناس وأزيائهم وعاداتهم ... والحديث عن قصورهم ودورهم ومساجدهم ثم عن أسواقهم وما فيها من مخازن وحوانيت وحمّامات ... وحرصاً على وضوح هذه الموضوعات سأذكر عنوان المقامة وإلى جانبه الموضوع الذي تتناوله . وقد اعتمدت في ترتيب المقامات وأرقام صفحاتها طبعة المقامات المشروحة للأستاذ الشيخ محمد عبده :

عنوان المقامة	موضوعها	رقم صفحتها
١ ـ المقامة القريضية :	يدور الحديث فيها حول مجلس أدبي من مجالسهم .	٩
٢ ـ المقامة الأزاذيّة :	وفيها حديث عن الكدية وذكر لحانوت بائع الفاكهة .	١٤
٣ ـ المقامة البلخيّة :	كدية عن طريق الكتابة وتوزيع الأوراق على الناس .	١٧
٤ ـ المقامة السجستانية :	الكدية عن طريق الوعظ .	٢٢
٥ ـ المقامة الكوفية :	مكد يطرق الباب ليلاً . وإشارة إلى بعض عاداتهم كتكنيس البيت بعد ترحيل الميّت .	٢٨
٦ ـ المقامة الأسَدية :	حادثان أحدهما مع قاطع طريق ، والثاني مع أسد .	٣٣
٧ ـ المقامة الغيلانيّة :	طرفة أدبية بين الفرزدق وذي الرمّة .	٤٣

عنوان المقامة	موضوعها	رقم صفحتها
٨ ـ المقامة الأذربيجانية	:من عاداتهم كثرة السفر والترحال .	٤٨
٩ ـ المقامة الجرجانية :	كدية عن طريق الاستعطاف .	٥١
١٠ ـ المقامة الأصفهانية :	الكدية في المساجد عقب الصلاة .	٥٦
١١ ـ المقامة الأهوازية :	بين الأصدقاء ، وفيها شيء من الوعظ .	٦٠
١٢ ـ المقامة البغدادية :	خبيث يمكر بسوادي ساذج ، وفيها وصف لبعض الهيئات والأطعمة .	٦٣
١٣ ـ المقامة البصرية :	اجتماع الأصدقاء في نزهة .	٦٧
١٤ ـ المقامة الفزارية :	الكدية عن طريق الأدب .	٧٢
١٥ ـ المقامة الجاحظية :	وصف لولية وحديث أدبي .	٧٧
١٦ ـ المقامة المكفوفية :	وصف شحاد يخدع الناس بالتعامي .	٨٣
١٧ ـ المقامة البخارية :	اجتماع الناس في المساجد ، واستخدام المكدين للأولاد بغية استدرار العطف .	٨٧
١٨ ـ المقامة القزوينية :	محتال يدّعي أنه عزيز ذلّ . وفيها ذكر لبعض متاع الأغنياء .	٩١
١٩ ـ المقامة الساسانية :	الاستجداء الجماعي . وفيها وصف للطعام واللباس .	٩٧
٢٠ ـ المقامة القرديّة :	تحلّق الناس حول مرقص القردة في بغداد .	١٠١
٢١ ـ المقامة المَوصليّة :	قاطع طريق ومأتم ميّت .	١٠٣
٢٢ ـ المقامة المضيريّة :	دعوة إلى طعام . وفيها وصف للبيت ولكثير من الأدوات والعادات .	١٠٩
٢٣ ـ المقامة الحِرْزيّة :	كثرة أسفارهم واعتقادهم (بالحُجُب) والأحراز .	١٢٤

عنوان المقامة	موضوعها	رقم صفحتها
٢٤ ـ المقامة المارستانية :	قصة جدل وردّ على المعتزلة بطلها مجنون في المارستان .	١٢٧
٢٥ ـ المقامة المجاعية :	وصف لبعض مجالسهم وما فيها من طعام وشراب .	١٣٣
٢٦ ـ المقامة الوعظيّة :	الوعّاظ ، وعظهم للناس في الطرقات وموضوعات وعظهم .	١٣٦
٢٧ ـ المقامة الأسودية :	طريد يلتجئ إلى أعراب في البادية .	١٤٤
٢٨ ـ المقامة العراقية :	أحاج شعرية تدلّ على شيوع الحفظ .	١٤٩
٢٩ ـ المقامة الحمدانية :	من عادات الملوك في الهبات .	١٥٨
٣٠ ـ المقامة الرصافية :	اجتماعهم في المساجد وذكر لأنواع من اللصوصية والعادات .	١٦٥
٣١ ـ المقامة المغزلية :	وصف لبعض أدواتهم كالمغزل والمشط ...	١٧٣
٣٢ ـ المقامة الشيرازية :	إيّاكم وخضراء الدمن .	١٧٦
٣٣ ـ المقامة الحلوانية :	وصف للحمّام والحلاّق وذكر لبعض عاداتهم وشتائمهم .	١٨٠
٣٤ ـ المقامة النهدية :	في وصف بعض الأطعمة .	١٨٥
٣٥ ـ المقامة الإبليسية :	من معتقداتهم . وفيها إلغاز بالسراج .	١٩٠
٣٦ ـ المقامة الأرمنية :	حديث عن التنّور وخبزه والسمان وترتيبه .	١٩٥
٣٧ ـ المقامة الناجيّة :	مذاكرة أدبية وإشارة إلى نفاق الشعر على أبواب الأمراء .	١٩٩
٣٨ ـ المقامة الخلّفية :	أثر الخادم في علاقة سيده بالناس .	٢٠٤

عنوان المقامة	موضوعها	رقم صفحتها
٣٩ ـ المقامة النيسابورية :	من أخلاق القضاة ، ووصف لبعض الهيئات .	٢٠٧
٤٠ ـ المقامة العِلمية :	كيف يكتسب العلم ؟	٢١٠
٤١ ـ المقامة الوصيّة :	تاجر يوصي ابنه بالحرص وفيها ذكر للشطرنج .	٢١٢
٤٢ ـ المقامة الصيمرية :	نبذوه فقيراً وأقبلوا عليه غنياً فانتقم منهم . إشارة إلى أخلاقهم ووصف لأطعمة وعادات ، وقيمة اللحى عندهم .	٢١٥
٤٣ ـ المقامة الدينارية :	تنافس في ميدان الشتيمة والسباب .	٢٢٤
٤٤ ـ المقامة الشعريّة :	من أحاجيهم في الأشعار .	٢٣٠
٤٥ ـ المقامة الملوكية :	من عادات الملوك وهباتهم .	٢٣٤
٤٦ ـ المقامة الصُفْريّة :	وصف لدنانيرهم .	٢٣٧
٤٧ ـ المقامة الساريّة :	مجلس عند والٍ .	٢٣٩
٤٨ ـ المقامة التيمية :	من مناصب الدولة ووظائفها عندهم .	٢٤١
٤٩ ـ المقامة الحمرية :	اجتماعهم على الحمرة . وصف للحانة وصاحبتها وتعريض ببعض القضاة !	٢٤٤
٥٠ ـ المقامة المطلبيّة :	رجل يخدع الناس بزهده ويسلبهم بحجة أنه يعرف مواضع بعض الكنوز .	٢٥١
٥١ ـ المقامة البشرية :	قصة زواج بالقوة !	٢٥٥

تعليق : إن تصفح الموضوعات السابقة مما تناولته المقامات يكفي لبيان هذه الصلة الشديدة بين المقامات من ناحية والمجتمع وحياة الناس من ناحية ثانية . وإذا كان أكثر هذه المقامات قائماً على الكدية أو ما يتصل بها من أساليب المكر والاحتيال ، فإن هذا جانب من جوانب الحياة الفقيرة البائسة

التي تحياها طبقة معيَّنة من الناس ، ثم إنها صور مختلفة للأساليب المتنوعة التي يبتدعها المكدون في المساجد والأسواق والبيوت ...

ولقد كانت لحديث الهمذاني عن أولئك المكدين والمحتالين والمتماجنين قيمة خاصة ، إذ لو كانت مقاماته كلها في الوعظ مثلاً ، أو في الحديث عما في دور الملوك والأمراء ، لما استطعنا أن نرى من خلالها صورة لحياة العامة من الناس .

ولعل هذا التتبّع لأعمال فئات معينة من الناس هو الذي يشدّنا إلى معرفة حياتهم الاجتماعية التي نبحث عن صورتها .

والحق أن الهمذاني يقدم لنا صورة توشك أن تكون متكاملة ؛ إذ يحدثنا عن مجالس أهل العلم والأدب وما يدور فيها من مساجلات ومناظرات ، ومجالس الشراب والطرب وما يدور فيها من أقداح وآلات . ويحدثنا عن الوعّاظ والمساجد والأسواق والدور والحمّامات والحوانيت والمطاعم والحانات . وهو يرسم لنا من خلال ذلك كله كثيراً من صور الذين يتحدث عنهم بأزيائهم وهيئاتهم حتى نوشك أن نراهم بثيابهم ، ونستمع إليهم بألفاظهم ، ونرى مرآة نفوسهم وشخصياتهم في أعمالهم وتصرفاتهم .

وهذا بعض ما في الأدب من روعة ؛ إنه يعيدنا إلى الماضي حتى كأننا نعيش فيه أو يأتي به إلينا حتى كأنه هو يومنا الحاضر وليس قطعة من ماضينا الغابر . وربما قال قائل : وهذا ما يفعله التاريخ . والحق أن الفرق بين تاريخ الماضي وبين الأدب الذي يحدثك عن الماضي هو الفرق بين من يسرد لك أسماء في حوادث . وبين من يريك صور الأشخاص وما يحيط بهم من تلك الحوادث ، إنه الفرق بين الكلام والتصوير .

الفصل الثالث

مُجتمع الهمذانيّ من خلال مقاماته

لا بد ، قبل البدء بدراسة للمجتمع الذي نريد ، من إلقاء نظرة على الحياة السياسية التي كان المجتمع خاضعاً لها ومتأثراً بها ؛ فإن معرفة الوضع السياسي تساعد على توضيح بعض الظواهر الاجتماعية كما تساعد على تفسيرها .

والفترة التي تهمنا في هذا البحث هي النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ، ذلك القرن الذي كان العصر الذهبي للعقلية العربية والذي كان ، إلى جانب ذلك ، عصراً عجيباً بما كان فيه من اضطراب في الحياة وعدم استقرار في الحكم . وإذا عجبنا لبعض جوانب الصورة الاجتماعية التي تقدمها لنا المقامات ، فإن الاطلاع على بعض جوانب الحياة السياسية لذلك المجتمع كفيل بإزالة العجب وتوضيح ما يُظلم أو يلتبس من معالم تلك الصورة .

حديث التاريخ : على أن بديع الزمان عاش بين سنتي ٣٥٨ و٣٩٨ هـ فالعصر الذي نتكلم عليه إذاً هو النصف الثاني من القرن الرابع . والصورة التي يرسمها لنا التاريخ عن تلك الفترة من الزمن صورة ممتلئة بالفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار .

الخلفاء والنفوذ الفارسي : وقد تداول الحكم في تلك الفترة أربعة من الخلفاء هم المستكفي (٣٣٤ هـ) والمطيع (٣٣٤ ـ ٣٦٤) والطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١) والقادر (٣٨١ ـ ٤٢٢) . وفيها بدأ النفوذ الفارسي يستعلي ويزداد حتى

أصبح الفرس هم الحكام الحقيقيين الفعليين ... وأما الخليفة فله من الحكم اسمه ، ومن الخلافة رسمها . وبسط أولاد بويه : علي والحسن وأحمد ، نفوذهم ، وتقلّدوا زمام الأمور ، واتخذوا الخلفاء عندهم صنائع يعطونهم المرتبات كسائر الموظفين ، وتحدثت كتب التاريخ بأنه لم يبق للخلفاء في الواقع إلا المظاهر كالسكّة والخطبة[1] .

حالة البلاد : وغرقت البلاد في بحران من الفوضى عجيب ، وما عرفت بغداد عاصمة الخلافة أسوأ من تلك الفترة ، ولا أكثر فساداً أو انحلالاً . وحسبك أن تاريخ تلك الفترة تاريخ تمتلئ منه النفس أسىً بما يطالعها في صفحاته من ظلم وعسف وقتل ، وفرقة واختلاف وضياع لهيبة الدولة !

ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٣٤ هـ[2] أنه في خلافة المطيع شغب الجند على معز الدولة وأزعجوه فضمن لهم أرزاقهم واضطر إلى ضبط الناس وأخذ الأموال من غير وجوهها ، وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعها ... وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف والغلاء والنهب[3] . وذكر في حوادث سنة ٣٦١ هـ أنه وقعت في بغداد فتنة وفساد عظيم . وفي حوادث سنة ٣٧٧ هـ أنه اشتدَّ الغلاء في العراق فضجَّ العامة وشغب الجند[4] . وفي حوادث سنة ٣٩٣ أنه اشتدت الفتنة في بغداد وكثر العيّارون والمفسدون « واشتد الغلاء في بغداد فأكل الناس الميتة والسنانير والكلاب ، وأكل الناس ضروب الشوك وكانوا يسلقون حبّه ويأكلونه فلحق الناس أمراض وأورام في أحشائهم وكثر فيهم الموت حتى

---

(١) انظر كامل ابن الأثير ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمن ٢ : ٩٤ .

(٢) انظر ـ إن شئت ـ ما كان يحدث قبل ذلك بقليل ، في عهد الخليفة المقتدر (المقتول سنة ٣٢٠) من حوادث التمرد وعجائب العصيان بزعامة خادمه مؤنس !

(٣) الكامل لابن الأثير ٨ : ١٧٩ .

(٤) المرجع السابق ٩ : ٧١ .

عجز الناس من دفن الموتى ، فكانت الكلاب تأكل لحومهم . وانحدر كثير من أهالي بغداد إلى البصرة فمات أكثرهم في الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز »[1] .

قاطع طريق يؤسس دولة : وكيف نتصوّر حال دولة استطاع أحد قطاع الطرق فيها أن يقيم دولة بالقوة ويجبر حاكم بغداد على الاعتراف به وبسلطانه ؟ وذلك هو ما فعله عمران بن شاهين حين اقتطع أرض « البطيحة » وأقام فيها دولة حكمها بنفسه من سنة ٣٢٩ إلى سنة ٣٦٩ ثم تتالى أعقابه على حكمها حتى سنة ٤٠٨ ؛ لقد كان عمران بن شاهين جابياً من جباة الضرائب في عهد معز الدولة ، جبى ما جبى من مال ، ثم فرّ به إلى ما بين واسط والبصرة ، وأقام هناك يقطع الطريق ويُؤوي إليه اللصوص والصيادين حتى شكل منهم جيشاً استطاع أن يجابه قوة السلطان وأن يتصدّى لجيش الدولة وأن يجبر معز الدولة على الاعتراف بسلطانه على الأرض التي غلب عليها[2] . ويبدو أنه كان لقطّاع الطرق شأن يذكر حتى كانت أخبارهم وأساليبهم موضوعاً لكثير من المقامات .

بين أهل السنّة والشيعة : ومما يتصل ببحثنا ذلك الحديث الخطير الذي تتحدث به كتب التاريخ عن الخلافات التي كانت مستمرة بين المسلمين من سنيّين وشيعة . نعم ، لقد كانت هناك خلافات أخرى كتلك التي كانت بين عناصر الأمة المختلفة من عرب وديلم وأتراك جمعتهم دولة بني العباس تحت لواء الإسلام ، ولكن الخلاف الأخطر والأهم هو ذلك الخلاف المذهبيّ الذي يستند عند أصحابه إلى أساس من الفكر والعاطفة ، ويضاف إلى ذلك ما كان

---

(١) ابن الأثير ٨ : ٢٣ و٢٦ و٣٠ و١٦٧ والمنتظم ٦ : ٣٣١ و٣٣٤ .

(٢) انظر أخبار عمران بن شاهين في الكامل لابن الأثير ٨ : ١٩٠ و٢٠٢ .

يقوم به بعض المتطرفين من أحد الجانبين المتخاصمين وما يسبّبه من ردة فعل قوية عند الجانب الآخر ؛ ولعل ما قام به معز الدولة البويهي مثل واضح لتلك التصرفات المتطرفة التي أججت نار الفتنة ؛ فلقد أمر معز الدولة أن يكتب شتم الصحابة على المنابر وفي المساجد ، فكان عمله هذا توسيعاً لشقّة الخلاف . قال ابن الأثير : « ومما يدل على بعد الشقة بين السنة والشيعة ما كتب على مساجد بغداد بأمر معز الدولة من لعن وشتم[1] ...!

وقد ظل هذا الخلاف يستشري ويمتد خطره حتى غدت بغداد في بعض أزمانها مسرحاً لصراع عنيف قاسٍ دار بين أتباع المذهبين ، كذلك الصراع الذي حدث في عهد الطائع حين كانت السلطة بيد بختيار بن معز الدولة وكرهت العامة ـ وأكثرها من أهل السنة ـ آل بويه لإفراطهم في التشيع مما كان سبباً لفتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والشيعة سفكت فيها الدماء وأحرقت الكرخ التي كانت محلة الشيعة » .

شمول الفوضى : وجدير بنا أن نتنبه إلى أن هذه الفتن والاضطرابات لم تكن مقتصرة على منطقة دون أخرى أو منحصرة في بغداد دون غيرها ، وإنما كانت ـ كعادتها في كل حين ـ سريعة العدوى ، وسرعان ما تطاير شرر الفتنة إلى كل بلد حتى كانت بلاد فارس كبلاد العراق ، وكانت خراسان كبغداد ؛ ولقد عمّت الفتن خراسان يوم دخلها على السامانيين شهاب الدين بن سليمان التركي ، وظلت الفوضى مستمرة فيها حتى قامت الدولة السبكتكية سنة ٣٨٩ على يد ملكها محمود الذي هزم السامانيين وأقام حكماً دام له حتى سنة ٤٢١ هـ .

---

(١) انظر الكامل حوادث سنة ٣٥٣ والمنتظم ١ : ٨٨ .

أثر تعدّد العناصر واختلاف المذاهب : هذان الأمران اللذان حدثنا عنهما التاريخ وهما : صراع العناصر المتعددة في الدولة ، وتناحر الفرق المذهبية ، هما اللذان فتّا في عضد الدولة العباسيّة .

لقد أخطأ بنو العباس ، في مجال الصراع العنصري ، حين اعتمدوا على غير العرب كل ذلك الاعتماد . ولئن أُخذ على بني أمية إفراطهم في الاعتماد على العنصر العربي ، لقد أُخذ على العباسيين عكس ذلك تماماً . والحق أن الدولة الإسلامية أيام بني العباس كانت دولة وحّد الدين فيها عناصر متباينة وشعوباً مختلفة ، ولكن من ذا الذي يزعم أن كل تلك العناصر والشعوب كانت متفقة المصالح موحّدة الأغراض ؟ ومن ذا الذي يزعم حسن الطويّة وسلامة النيّة عند أولئك « المواطنين » جميعاً ؟ ألم يكن بينهم طامح إلى سلطة يغتصبها ؟ أو مجد يرفع قومه إليه ؟ .

لقد كان التنافس مستعر الأوار فيما بين المختلفين جنساً أو مذهباً ، وكانت من وراء التنافس فتن ودسائس ، وكان كل ذلك معولاً ارتفع من داخل الدولة الإسلامية العباسية ، لهدم تلك الدولة حتى جعلها نهباً موزعاً بين الأتراك والبويهيين والسلاجقة .

وأما في ميدان الصراع المذهبي فقد افتضح أمر العباسيين وانكشف خداعهم للناس ، وظهر تغريرهم بآل البيت وسلبهم حقهم الذي يعتقدونه في الخلافة ، وذلك أنه لم ينقشع ضباب الثورات ولم تهدأ نار الفتن ويستتب الحكم لبني العباس حتى وضح الأمر وظهرت الحقيقة : لقد خدع العباسيون آل البيت ! واتخذوا من حقهم في الخلافة التي تقمّصها معاوية قميص عثمان ، يقومون من أجل آل البيت في الظاهر فيكسبون منهم العون ومن أنصارهم التأييد ، وما يقومون إلا من أجل أنفسهم لو كانوا يُفصحون .

كل ذلك كان مما أثار الناس ، وحرّك شعورهم بالشفقة على آل البيت ، وفسح مجال التدخل للحاقدين من غير آل البيت ومن غير العرب ، وجعل الألسن تتداول موضوع هذا الحق السليب بين المؤيدين والمناهضين .

ثم تمر السنون فإذا الاتجاهات تتوضح وتتبلّر أو تكاد ، وإذا هناك مذهب أهل السنة ومذهب الشيعة ، ويبدأ الكلام بأسلوبه الجدلي ينفث عقده بين هؤلاء وأولئك ، فإذا الاتجاهات تتفرع ، وإذا المذاهب تتنوع فيكون من وراء ذلك مناظرات ومحاورات ، ويكون من وراء هذه وتلك أخبث الآثار في نفوس الناس ، هذه الآثار التي تظهر حيناً وتختفي ـ ولكنها لا تزول ـ في حين آخر .

ولقد كانت بعض حوادث التاريخ تدل على أن تلك الآثار مستكنة في نفوس أصحابها تنتظر الفرصة المواتية للظهور ، وليست دعوة أبي العباس السفاح لأحفاد عليّ في أحد مواسم الحج وإكرامه لهم أمام الناس إلا مداواة منه للجرح الذي نكأه ، وشعر أن أمره انكشف وأنه ما زال دامياً في قلوب أصحابه . بل كثيراً ما كانت تلك الآثار تلبس لباس القوة وتظهر في شكل ثورة أو تمرّد . وكم ثار رجال من آل البيت في وجوه الخلفاء العباسيين كثورة أو انتفاضة ، ثم لم يلبثوا أن نظّموا أمرهم وأرسوا قواعد دعوتهم حتى كان لهم في منتصف القرن الهجري الثالث دعاة منظمون منتشرون في كل بقعة من بقاع الدولة وأطرافها .

بين السياسة والمجتمع :

هذه إشارة إلى بعض ماله صلة بموضوعنا من المشاكل السياسية والمذهبية لذلك العصر . وهي فيما نرى كافية لإعطاء فكرة عن السياسة وفوضاها . على

أن الذي يعنينا في هذا البحث إنما هو أثر هذه الحياة السياسية ـ وليس هو الحياة السياسية نفسها ـ في المجتمع الذي يعيش في ظلها .

لاشك أن هناك صلة قوية بين الوضعين السياسي والاجتماعي في المجتمع الواحد ، وأن الحياة السياسية لابد أن تترك آثاراً من آثارها في المجتمع ، كما أن الحياة الاجتماعية ، ومستواها ، وتركيب الطبقات الاجتماعية ، والعناصر المكوّنة للمجتمع ، كل ذلك يؤثر في الحياة السياسية التي يحياها المجتمع .

والمجتمع الذي نتحدث عنه ليس بدعا بين المجتمعات ، فلا غرو أن يتأثر بحياة الفوضى التي مرَّت عليه وعاش فيها ، وكيف لا يتأثر المجتمع بحكّام يضطرون تحت ضغط الجند وشغب الجيش أن يجمعوا الأموال من غير وجوهها ؟ وكيف لا يتأثر المجتمع بقاطع طريق يقاتل الدولة حتى يصبح حاكماً ذا سلطان تعترف به الدولة ؟ وكيف لا يتأثر المجتمع بحكم غير مستقرّ وعناصر مختلفة ومذاهب غير مؤتلفة ؟ بل كيف لايتأثر المجتمع بكل هذه العوامل مجتمعة ، وقد كانت كلها في ذلك المجتمع في تلك الفترة من الزمن ؟

قيمة الأخبار الأدبية : حين يتحدث التاريخ عن مجتمع من المجتمعات يلفت نظرنا في حديثه أمرٌ ذو شأن في بحثنا هذا ، وهو أنه إذا كان المجتمع عادة يتألف من طبقات متعددة تتدرج من الملوك والحكام ثم من يليهم إلى عامة الناس وسوقتهم ، فإن حديث التاريخ ينصرف أكثره إلى الطبقة العليا في المجتمع ، وربما لا يخصّ الأكثرية الساحقة من الناس إلا بجزء يسير مما يخصّ به الطبقة الحاكمة ؛ إنه يتحدث عن الخلفاء أو الملوك والوزراء بمزيد من البيان والتفصيل ، ويتناول أصغر أمورهم وصغائر ما يتصل بهم من مسكن ومطعم ومشرب وملبس ، على حين يغفل أمر الطبقة العامة فلا يلتفت إلى ذكرها إلاّ إذا لفتته هي بثورة قامت بها أو عمل نبهه إلى شأنها .

ولن يكون شأننا في هذا البحث الأدبي شأن كتّاب التاريخ ، بل نحن على العكس منهم لا يعنينا أن نتحدث في أخبار المجتمع عن الخلفاء والأمراء والحكّام ممن تطوّع المؤرخون لسرد أخبارهم ، ولكن الذي يعنينا ونقصد إليه هو وصف الطبقة العامة من الناس والسواد الأعظم من الشعب ؛ سنسأل عن هؤلاء الناس كيف كانوا يعيشون ؟ وكيف كانت هيئاتهم وملابسهم ؟ وكيف كانت مجالسهم ومآكلهم ؟ وماذا كانوا يأكلون ويشربون ؟ وكيف كانت دورهم وأثاثاتهم ؟ وكيف كانت أسواقهم وحوانيتهم ؟ وما عاداتهم ؟ بل كيف كانوا يتماجنون ويتمازحون ويتشاتمون ؟

إن التاريخ لن يتولى الإجابة عن كثير من هذه الأسئلة ، وإن كانت في ثنايا أخباره إشارات إلى ذلك ..ولكن الذي يقرّب إلينا الكثير مما نريد إنما هو الأدب .. وإننا لواجدون في الأدب ، شعره ونثره ، وحكاياته وأخباره ، ولواجدون في « المقامات » .. كثيرا من الأخبار التي نريد . بل إننا سننظر في كتب التاريخ ثم سننظر في « المقامات » وسنرى بين سطورها كثيراً مما انطوت دونه صفحات التاريخ .

لقد تناول الهمذاني حياة القوم ووصفهم في دورهم ومساجدهم وأسواقهم وحوانيتهم ، ووقفنا على مجالس أنسهم ومكائدهم ، وصوّر لنا الكثير من أخلاقهم . وعرّفنا على كثير من فئاتهم . لقد كان الهمذاني بارعا في جعل المقامات مسرحا أقامه على بطولة أبي الفتح الاسكندري ، وهو يجعل أبا الفتح في كل مقامة من مقاماته أنموذجا لفئة من الناس يلبسه لباسها ، وينطقه بلسانها ، ويُجري تصرفاته بوحي من أخلاقها ، حتى كان لأبي الفتح في كل مقامة دور ، وهو في كل دور من أدواره إنما يمثل رجلا من رجال عصره ومجتمعه .

١ـ الزهد والوعظ ـ اللهو والمجون ـ عقلية العامّة وما يدلّ عليها من معتقد ولغة وهيأة :

كنا نرغب أن نبدأ هذا البحث بالكلام على (حياة العامة) ولكننا رأينا أننا لن نعرف حياتهم إلا عن طريق الإلمام بما تمكن معرفته من صفاتهم وعقليّتهم وعاداتهم وخصائصهم وأساليب حياتهم في الدور والأسواق والمساجد وغيرها .

وسنحاول في سبيل الوصول إلى ذلك أن نتتبع أخبارهم المتصلة بذلك في كتب التاريخ أولاً ، ثم في مقامات الهمذاني ثانياً ، لنرى فضل الأديب في الكشف عن كثير من خبايا الحياة التي أغفلها التاريخ فأضاعها ، أو خجل من ذكرها فكادت تضيع .

كان المجتمع الإسلامي ، ولسنا نسمّيه بغير ذلك لأنه لم يكن عربياً خالصاً ، وإنما كانت فيه أجناس وشعوب تلاقت تحت راية الإسلام ، نقول كان هذا المجتمع في عصر الهمذاني مجتمعاً فيه الكثير من المتناقضات ، إلا أنه التناقض المنسجم مع طبيعة الحياة ، وطريف أن يكون في التناقض انسجام . نعني أنه كان تناقضا طبيعيا ؛ كوجود الزهد والورع جنبا إلى جنب مع الخلاعة والمجون . إذ أليس من التناقض الطبيعي مثلاً أن يؤدي الإفراط في الأمر إلى عكسه ؟ ألم يقولوا : إن تجاوز الأمر لحدّه يقلبه إلى ضدّه ؟ وهذا ما وقع حين أدّى الإفراط في الخلاعة والمجون عند طائفة من الناس إلى التمسّك بالدين والزهد في متع الحياة عند طائفة أخرى منهم .

الزهد في التاريخ : لم يغفل المؤرخون الذين تحدثوا عن ذلك المجتمع الكلام على ما كان فيه من ورع وتقى ، وما انتشر فيه من زهد وتصوّف ، كما

تناولت ذلك كتب التراجم فذكرت الكثير من أخبار الزهّاد والمتصوّفين ، ويذهب بعض الباحثين إلى أبعد من ذلك فيزعم أن التصوف نفسه كان مجالاً للتنافس كغيره من علوم النحو والكلام ..، يقول آدم متز : « وكانت بغداد والبصرة مختلفتين في أمر التصوّف ، كما كانتا مختلفتين في مسائل اللغة وعلم الكلام ؛ فكانت بغداد أكبر مدرسة للمتصوفين على حين كانت البصرة أكبر مركز للزهّاد ، وبقيت كذلك حتى أيام المقدسي[1] . » والمقدسي ، كما نعلم ، من رجال النصف الثاني من القرن الرابع . وحسبنا للدلالة على مدى انتشار الزهد والتصوّف في تلك الفترة أن نذكر أنه عاش فيها عدد من أعلام الزهاد والمتصوفين كصاحب الرسالة القشيرية ، وقد كتبها سنة ٤٣٧ ، وأبي العباس محمد البشتي الزاهد المتوفى سنة ٣٨٤ هـ . بل أصبحت للمتصوفين والزهّاد كتب خاصة تتناول تراجمهم وطبقاتهم ككتاب « طبقات الصوفية » للسُلمي المتوفى سنة ٤١٢ وكتاب « طبقات النسّاك » لأبي سعيد الأعرابي المتوفى سنة ٣٤١ .

النزعة إلى الزهد في المقامات : ليس حديث التاريخ عن انتشار الوعاظ في الأسواق وتحلق الناس حولهم بأوضح من حديث أبي الفضل إذ قال في المقامة الوعظية[2] « حدثنا عيسى بن هشام قال : بينا أنا بالبصرة أميس حتى أداني السير إلى فرضة قد كثر فيها قوم على قائم يعظهم وهو يقول : أيها الناس ، إنكم لم تُتركوا سُدى ، وإن مع اليوم غدا ، وإنكم واردو هوّة ، فأعدّوا لها ما استطعتم من قوة . وإن بعد المعاش معادا ، فأعدّوا له زادا ، ألا لا عذر فقد بيّنت لكم المحجة ، وأخذت عليكم الحجة من السماء بالخبر ومن الأرض

---

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٦ .

(٢) المقامة الوعظية : ١٣٦ .

بالعبر . ألا وإن الذي بدأ الخلق عليا يحيي العظام رميا » وهو لايكتفي بمجرد الوعظ ، وإنما يعنى ببيان موضوعه وأنه وعظ يلائم تكالب الناس على الدنيا إذ هو في الحث على الزهد وترك مباهج الحياة فيقول : « ألا وإن الدنيا دار جهاز ، وقنطرة جواز ، من عَبَرها سلم ، ومن عمرها ندم . ألا وقد نصبت لكم الفخ ونثرت لكم الحب فمن يرتع يقع ومن يلقط يسقط . ألا وإن الفقر حلية نبيكم فاكتسوها ، والغنى حلة الطغيان فلا تلبسوها . »[1] ويقول : « ياقوم الحذر الحذر ، والبدار البدار ، من الدنيا ومكايدها وما نصبت لكم من مصايدها وتجلت لكم من زينتها واستشرفت لكم من بهجتها :

وفي دون ما عاينت من فَجَعَاتها ... إلى رفضها داعٍ وبالزهد آمرُ
فجدّ ولا تغفُل فعيشك بائد ... وأنت إلى دار المنيّة صائر
ولا تطلب الدنيا فإن طِلابها ... وإن نلت منها رغبة لك ضائر[2]

ويبين أن من موضوعات وعظهم الحث على الإيمان وكأنه يصوّر لنا بذلك ماأخذ يتغلغل في ذلك المجتمع من شك وإلحاد ، فهو يدعو إلى عدم الالتفات إلى المشككين وإلى آرائهم ومذاهبهم فيقول على لسان أحد الوعاظ : « كذبت ظنون الملحدين ، الذين جحدوا الدين ، وجعلوا القرآن عِضين[3] » وإذا كان بين الناس من ينكر البعث فهو يردّ عليه إذ « ان بعد الجدث جدثا ، وإنكم لم تخلقوا عبثا . فحذار حرَّ النار وبَدار عقبى الدار . »[4] « ألا تعجبون ممن ينام وهو يخشى الموت ولا يرجو الفَوت .

---

(١) المقامة الوعظية : ١٣٧ .
(٢) المقامة الوعظية : ١٤٠ .
(٣) المقامة الوعظية : ١٣٧ .
(٤) المقامة الوعظية : ١٣٧ .

ألالا ، ولكنّـــا تغرُّ نفـوسَنـــا وتَشغلهـا اللَّـذاتُ عمّـا تحـاذر
وكيف يلـذّ العيشَ من هو مـوقن بمـوقف عـدْل حيث تُبلى السرائر
كأنّـــانرىأنْلانشـــورَوأننـــا سُدَىمالنابعـدالفنـاءمصـاير[1] . »

اتخاذ الوعظ وسيلة للخداع : ولسنا نغالي إذا قلنا إن بديع الزمان أعطانا صورة أوضح مما أعطانا التاريخ عن نَفاق سوق الوعظ حين ذكر لنا مدى انتشار الوعاظ وإقبال العامة عليهم حتى لفت ذلك الإقبال أنظار الدجالين فتطفّلوا على الوعظ ، واتخذوه حرفة للكسب ، ومطية لنيل المآرب ؛ إنهم كانوا يتخذون من حث الناس على الزهد فخّا يسلبون من ورائه ما يكرّهون الناس به من متع وأموال . وهذا واحد من هؤلاء الماكرين يروي لنا بديع الزمان قصته فيقول إنه فقير محتاج فكّر في أمر معاشه فلم يجد خيراً من سبيل الوعظ فكان وعظه مطية للكدية وهو يقول : « ونفرت عن الدنيا نفور طبع الكريم عن وجوه اللئام . ونبوت عن المخزيات نبوّ السمع الشريف عن شنيع الكلام . والآن لمّا أسفر صبح المشيب وعلتني أبهة الكبر عمدت لإصلاح أمر المعاد بإعداد الزاد ، فلم أر طريقاً أهدى إلى الرشاد مما أنا سالكه »[2] .

وهو يعتقد أنه بوعظه هذا يؤدي أمانة في عنقه ! فيقول « ودُفعت إلى مكاره نذرت ألاّ أدَّخر عن المسلمين منافعها . ولا بدَّ لي أن أخلع ربقة هذه الأمانة من عنقي إلى أعناقكم ، وأعرض دوائي هذا في أسواقكم ، فليشترِ مني من لا يتعزَّز من موقف العبيد ولا يأنف من كلمة التوحيد[3] » .

وذلك مخادع آخر يتظاهر بالورع والزهد ، ويبطن الخداع والمكر ،

---

(١) المقامة الوعظية : ١٤١ .

(٢) المقامة السجستانية : ٢٦ .

(٣) المقامة السجستانية : ٢٧ .

ويتخذ الوعظ والزهد وتكريه الغنى إلى الأغنياء وسيلة إلى الإيقاع بالسّذّج ، إنه كما يقول عيسى بن هشام : « شاب قصير من بين الرجال ، محفوف السبال[1] ، لا ينبس بحرف ، ولا يخوض معنا في وصف . حتى انتهى بالكلام إلى مدح الغنى وأهله وذكر المال وفضله . وأنه زينة الرجال وغاية الكمال ، فكأنما هبَّ من رقدة ، أو حضر بعد غيبة ، وفتح ديوانه وأطلق لسانه فقال : صه . لقد عجزتم عن شيء عدمتموه ، وقصَّرتم عن طلبه فهجنتموه ، وخُدعتم عن الباقي بالفاني ، وشغلتم عن النائي بالداني . هل الدنيا إلا مناخ راكب ونعلة ذاهب ؟ وهل المال إلا عارية مُرتجعة ووديعة منتزَعة ؟ يُنقل من قوم إلى آخرين ، وتخزنه الأوائل للآخرين ؟ وهل ترون المال إلا عند البخلاء دون الكرماء ؟ والجهال دون العلماء ؟ إياكم والانخداع فليس الفخر إلا في إحدى الجهتين ، ولا التقدم إلا بإحدى القسمتين : إما نسب شريف أو علم منيف ، وأكرم بشيء يُحمل على الرؤوس حامله ، ولا ييأس منه آمله ، والله لولا صيانة النفس والعِرض لكنت أغنى أهل الأرض ...[2] » ثم يستطرد زاعما أنه يعرف موضع مطلبين عظيمين وكنزين ثمينين ، فيقبل عليه الناس ويعطونه المال الوافر أملاً في إرشادهم إلى مكان ذينك المطلبين فيأخذ المال ويعدهم بأن يدلهم في اليوم الثاني ثم يذهب ولا يعود !

أليست هذه الطرف الهمذانية كافية لإطلاعنا على مدى انتشار الوعظ حتى نزل إلى ميدان الكسب و تنافس فيه المخادعون ووقع في شباكهم سذج القوم ؟

وقد كثر الوعظ في المقامات ، وكثر اتخاذه وسيلة للكدية أو الخداع ،

---

(١) السبال : ج سبلة ما يحف بالفم من شعر الشارب .

(٢) المطلبية : ٢٥١ .

حتى أصبحنا نعجب إذا رأينا في مقامة من المقامات وعظاً صادقاً ليس للمقامة غرض آخر سواه ، على غير ما تعوّدنا في جميع المقامات ؛ وذلك هو الوعظ الذي نسمعه في المقامة الأهوازية ، حيث نفاجأ بجواب الواعظ الذي سألوه في آخر وعظه : ما حاجتك ؟ فقال : « أطول من أن تُحدّ ، وأكثر من أن تُعد . قلنا : سانح الوقت . قال : ردّ فائت العمر ، ودفع نازل الأمر . قلنا : ليس ذلك إلينا ، ولكن ما شئت من متاع الدنيا وزخرفها . قال : لاحاجة لي فيها ، وإنما حاجتي بعد هذا أن تخِدوا[1] أكثر من أن تعوا[2] . » إنها فلتة من أبي الفتح الاسكندري الواعظ . ولكنها على كل حال ليست غريبة عن المجتمع الذي يصوّره أدب الهمذاني .

أخبار المجون في التاريخ :

كان المجون يعيش إلى جانب الورع والزهد في مجتمع واحد ، وقد رأينا أن لاعجب في ذلك ، وأنه تناقض معقول ؛ إن الزهد إلى جانب المجون لا يعني أكثر من أن قوما متديّنين رأوا طغيان الماجنين وتجاوزهم حدود العقل أو الطبع ، فخافوا على أنفسهم فتنة الغيّ وفرّوا بدينهم إلى الله إنقاذا لنفوسهم ، وتحريرا لها من عبودية الشهوة والمتعة .

وليست أخبار المجون في كتب التاريخ بسرّ مصون ولا حديث مكتوم ، بل لقد وجدت هذه الأخبار خاصة من يبحث عنها ويُعنَى بنشرها على الناس ، إنها وجدت في عصرنا هذا من يختار أمثلة منها ، وينفخ فيها من خياله ، تهويلا وتضخيماً ، وينشرها في كل مناسبة ، بغية التشويه لقداسة أيام ماضية ، أو بغية الإفساد لحاضر يغريه بالتقليد ، أو يغويه بالمثَل السيئ . وأي

---

(١) الوخد : ضرب من السير السريع .

(٢) المقامة الأهوازية : ٦٣ .

تشويه أو إفساد هذا الذي بلغ من نفوس أبناء الجيل « الصاعد » أنه إذا أراد أحدهم أن يتخذ مثلاً لخلاعة ملك ماجن ، أو فجور ثري مستهتر ، اتخذه من أكرم شخصيات تاريخنا ، فمثّل بالخليفة هارون الرشيد ، مغفلاً ما قاله عنه التاريخ من أنه كان يحجّ سنة ويغزو أخرى ، وأنه كثيراً ما كان يبكي بين أيدي الوعّاظ والناصحين .

لقد غلب على عقول الجيل ما نفثته الشياطين ، وما زينته النفوس المغرضة حتى انمحت الأمثولة الصالحة والقدوة الحسنة . وأي فجيعة أبلغ من فجيعة الأمة بتاريخها ؛ حين يفتح أبناؤها عيونهم فإذا الذي كان من أبطال الجهاد والتُّقى مَثَل للخلاعة والاستهتار والفجور ؟

نعم إنه يجب أن نعرف خطأ الحاكم وانحراف الراعي ، ليؤتي تدريس التاريخ أكُلَه ويحقق غايته ؛ لنعرف ما وقع السلف فيه من الخطأ فنجتنبه ، ونرى الباب الذي تسرّب منه الانحراف فنسدّه ، ولكنه شتان ما بين الذي ينشر أمام أجيالنا صفحات المجد الماضي لتكون لهم في أبطالها أسوة ، أو ينشر أمثلة من أخطاء الحكام وسوء تصرّفهم ، إنْ في السياسة أو في الحرب أو في الأخلاق ، ليبصّر بنتائج ذلك وما كان له من آثار في حياة دولهم وشعوبهم ، وبين من ينشر الماضي فلا يقف إلا على المخازي والآثام .

ونعود إلى أهل القرن الرابع لنقول إنهم عرفوا اللهو والمجون ، وكانت لهم حلقات يجتمعون فيها على الغناء والوتر والشراب والسمر ، وأن ذلك كان معروفا بينهم ، وحسبك أن ترى مثالا من حياة الترف والتبذير في أخبار المقتدر (ت ٣٢٠هـ) وأخبار الوزير المهلبي (ت ٣٥٢ هـ)[1]، وأن تسمع إلى عضد الدولة ينشد :

---

(١) انظر يتيمة الدهر ٢ : ١٠٦ .

ليس شرب الكأس إلا في المطر وغنـــــاء من جـــوارٍ في السحر
غـــانيـــات ســـالبـــات للنُهى نـــاغمـــات في تضـــاعيف الـوتر
مبرزات الكاس من مطلعهـــــا ســـاقيـات الراح من فـاق البشر

على أنه ليس من غرضنا في هذا المقام أن نستعرض مـا جـاء عن مجـالس اللهو والطرب في قصور الأمراء ومجالس الأغنيـاء ، ولكن الـذي نحب أن ننبـه عليه هو أن بديع الزمان الهمذاني قدّم لنا في مقاماته ما يشبه أن يكون صورة لهـذا الجـانب العـابث من الحيـاة ، وهـو لم يقصر حـديثـه على طبقـة الأمراء والأغنياء وإنما تعدّى هؤلاء ، كما تعدّاهم في سائر أحاديثـه ـ إلى طبقـات أخرى من أهل مجتمعه ؛ لقد حدّثنا الهمذاني عن شباب القوم ومجـالس لهوهم وعبثهم ، كما حـدثنـا عن الـوعّـاظ ومـا كان في وعظهم من نصـح وإرشـاد وحثّ على الزهد ... بل وما كان في أحاديث بعضهم أيضاً من مداهنة واحتيال وخداع .

المجون في المقامات : وكما حـدثنـا بـديع الزمـان عن الجـانب الزاهـد في المجتمع ، كـذلـك حـدثنـا عن الجـانب الآخر ، جـانب اللهو والمجون ، ولم يُغفل تصوير الحيـاة العـابثـة اللاهيـة ، بل أخـذ بـأيـدينـا إلى بعض مجـالس القوم ، وأطلعنا على ما يدور فيها من أسبـاب اللهو والمتعـة ، وهو لا يقف بنـا وقفـة التـاريخ أمـام أبـواب الخلفـاء ، وقصـور الأمراء ، أو يمرّ ببعض هـذه الأخبـار مرور المؤرخ يشير ويلمح ، ولكنه يفصّل ويصرّح ، بل يلج بنـا مجـالس القوم وحاناتهم ، ويرفع لنا الستار عن اجتماعهم على الخمرة والوتر .

قال عيسى بن هشام : « جعلتُ النهارَ للنـاس والليلَ للكاس ، واجتمع إلي في بعض ليـاليّ إخوان الخلـوة ، ذوو المعـاني الحلـوة ، فمـا زلنـا نتعـاطى نجـوم الأقداح ، حتى نفد ما معنا من الراح ، واجتمع رأي النُدمان على فصد الـدنـان

فأسلنا نفسها وبقيت كالصدف بلا درّ أو المصر بلا حرّ ، ولما مسّتنا حالنا تلك دعتنا دواعي الشطارة إلى حان الخمّارة والليل أخضر الديباج مغتلم الأمواج[1] . »

وهو لا يكتفي بأن يجمعنا إلى « إخوان الخلوة » وأن يشير إلى قصدهم حان الخمّارة وإنما يمضي بنا ـ لنرى كيف انقضت تلك الليلة ـ فيقول : « ولما حشرج النهار أو كاد ، نظرنا فإذا برايات الحانات أمثال النجوم في الليل البهيم ، فتهادينا بها السرّاء وتباشرنا بليلة غرّاء . ووصلنا إلى أفخمها بابا ، وأضخمها كلابا ، وقد جعلنا الدينار إماما ، والاستهتار لزاما ، فدفعنا إلى ذات شكل ودلّ ووشاح منحلّ ، إذا قتلت ألحاظها أحيت ألفاظها ، فأحسنت تلقّينا وأسرعت تقبّل رؤوسنا وأيدينا ، وأسرع من معها من العلوج إلى حطّ الرحال والسروج وسألناها عن خمرها فقالت :

خمر كريفي في العذوبة واللّذاذة والحلاوه
تذر الحليمَ وما عليه لحلمه أدنى طُلاوه

كأنما اعتصرها من خدّي أجداد جدّي ، وسربلوها من القار بمثل هجري وصدّي ، وديعة الدهور وخبيئة جيب السرور ، وما زالت تتوارثها الأخيار ويأخذ منها الليل والنهار ، حتى لم يبق إلا أرج وشعاع ووهج لذّاع ، ريحانة النفس وضَرّة الشمس ، فتاة البرق عجوز المَلَق ، كاللهب في العروق ، وكبرد النسيم في الحلوق ، وصباح الفكر وترياق سمّ الدهر ، بمثلها عزّر الميت فانتشر ، ودووي الأكمه فأبصر .

قلنا : هذه الضالّة وأبيك . فمن المطرب في ناديك ؟ ولعلها تشعشع

---

(١) المقامة الخمرية : ٢٤٤ واغتلم : هاج .

للشَّرب بريقك العذب ! قالت : إن لي شيخا ظريف الطبع طريف المجون ، مرّ بي يوم الأحد في دير المِرْبَد فسارّني حتى سرّني ، فوقعت الخلطة وتكررت الغبطة ...وسيكون لكم به أنس وعليه حرص[1] .. » .

فأي شيءٍ فاتنا بعد هذا الوصف من مجالس الخمرة ؟ لقد رأينا الحانة ودخلناها وعرفنا بابها وكلبها ومستخدميها من العلوج ، ورأينا صاحبتها ذات الشكل والدلّ والوشاح المنحلّ ...وتخيّلنا خمرها وعتقها ولونها ، وعرفنا مؤنس الندمان ومطربهم ...

بل إن الهمذاني استطاع في المقامة أن يصوّر لنا الجانبين جميعاً ؛ وذلك حين رسم صورة الشباب المنكبين على الخمرة ، وصورة الأتقياء المحافظين على الصلاة في مساجدهم ، وجعل المصلّين يتألّبون على المخمورين بعد أن فاحت منهم ريح الخمرة في المسجد ، قال ابن هشام : « ...واجتمع إليّ في بعض ليالي إخوان الخلوة ذوو المعاني الحلوة ، فما زلنا نتعاطى نجوم الأقداح حتى نفد ما معنا من الراح ، واجتمع رأي الندمان على فصد الدنان فأسلنا نفسها وبقيت كالصدف بلا درّ أو المصر بلا حرّ ، ولما مسّتنا حالنا تلك دعتنا دواعي الشطارة إلى حان الخمّارة ، والليل أخضر الديباج مغتلم الأمواج . فلما أخذنا في السَّبْح ثوّب منادي الصبح ، فخنس شيطان الصبوة وتبادرنا إلى الدعوة ، وقمنا وراء الإمام قيام البررة الكرام ، بوقار وسكينة وحركات موزون، فلكل بضاعة وقت ولكل صناعة سمت ، وإمامنا يجدّ في خفضه ورفعه ، ويدعونا بإطالته إلى صفعه ، حتى إذا راجع بصيرته ورفع بالسلام عقيرته ، تربّع في ركن محرابه وأقبل بوجهه على أصحابه ، وجعل يطيل إطراقه ويديم استنشاقه ، ثم قال :

---

(١) المقامة الخمرية : ٢٤٧ .

أيها الناس ، من خلط في سيرته وابتُلي بقاذورته ، فليسعه دِياسه[1] دون أن تنجّسنا أنفاسه ، وإني لأجد منذ اليوم ريح أم الكبائر من بعض القوم ، فما جزاء من بات صريع الطاغوت ثم ابتكر إلى هذه البيوت التي أذن الله أن ترفع وبدابر هؤلاء أن يقطع ، وأشار إلينا فتألّبت الجماعة علينا حتى مزّقت الأردية ودميت الأقفية ، وحتى أقسمنا لا عدنا وأفلتنا من بينهم وما كدنا[2] » .

فجمع الهمذاني في هذه المقامة بين أهل المسجد وأهل الحانة ، وبين من في المحراب يركع ويسجد ومن مع الدنّ يقوم ويقعد ، فكان منصفا لهؤلاء وأولئك جميعاً ، وأعطى كلاً منهم حقه من الوصف ، فكانت مقامته ممثلة لطائفتين في مجتمعه ، وهما طائفتان ما زالتا موجودتين إلى اليوم جنبا إلى جنب في كل مجتمع .. وكانت أخبار الهمذاني عن الوعظ والزهد واللهو والمجون لاتقلّ وضوحاً عن أخبار التاريخ إن لم تكن أكثر تفصيلاً وتصويراً في بعض الأحيان.

عقلية العامة : أما عقلية القوم في القرن الرابع فقد حدثنا عنها التاريخ بما يرفع رأس أمتهم فخراً واعتزازاً ؛ كانت عقلية جبّارة نشيطة مبدعة خاضت كل علم ، وألّفت في كل فنّ ، واستوعبت ما ورد إليها من قرائح العقليات الغريبة عنها كالفارسية واليونانية والهندية ... وحسبنا أن نتذكر أعلام الفكر الإسلامي في القرن الرابع لنعلم مدى ما وصلت إليه تلك العقلية من نضج ورقيّ . ولكن هل القوم كلهم علماء ؟ وهل القوم كلهم ذوو عقليات

---

(١) الدياس : الكن ، ويعني به البيت .

(٢) المقامة الخمرية : ٢٤٥ .

راقية تسبر الأغوار ؟ لابدَّ من ترك العلماء جانباً للبحث عن الصّفات العقلية للسّواد الأعظم من الناس .

إيمانهم بالأحراز : لعل من أبرز خصائص « عقلية العامة » سرعة التصديق ؛ فهم يؤمنون بادي الرأي ، ويصدّقون بسرعة عجيبة كل ما يقال لهم ، كما رأينا في الحديث عن دجل بعض الوعاظ ، واتخاذهم الوعظ مطية لبلوغ المآرب الخاصة والغايات الدنيا ، وكيف كان الناس يصدّقونهم ويقبلون عليهم . ولعل لنا في المقامة الحرزية مثالاً أوضح لتبيان ما كانت عليه العامة من سرعة الإيمان وسلامة الطويّة ، ومن أسرع إيمانا وأسلم طوية ممَّن يعتقد أن حرزاً يُنجي من الغَرَق ؟ وليته كان حرزاً متصلاً بأسباب الدين ، أو كان آيات من القرآن الكريم ، إذاً لكان للقوم عذرهم لما يوحي به الإيمان بالدين من الاطمئنان ، وما يلقيه في النفس من السكينة ، ولكنه حرز مصون بالديباج والعاج ، يتلقَّاه القوم مؤمنين ، قبل أن يعلموا حقيقة ما يحتويه ! قال عيسى بن هشام يصف عودته من السفر : « ولّما ملكنا البحر وجُن علينا الليل ، غشيتنا سحابة تمدّ من الأمطار حبالاً وتحوز من الغيم جبالاً ، بريح ترسل الأمواج أزواجاً والأمطار أفواجا ، وبقينا في يد الحَيْن بين البحرَيْن ، لانملك عدّة غير الدعاء ، ولا حيلة إلا البكاء ولا عصمة غير الرجاء .

وطويناها ليلة نابغية ، وأصبحنا نتباكى ونتشاكى ، وفينا رجل لا يخضلّ جفنه ولا تبتلّ عينه ، رخيّ الصدر منشرحه نشيط القلب فرحه ، فعجبنا والله كل العجب ، وقلنا : ما الذي أمَّنك من العطب ؟ فقال : حرز لايغرق صاحبه ، ولو شئت أن أمنح كلاً منكم حرزاً لفعلت . فكلٌّ رغب إليه وألحّ في المسألة عليه . فقال : لن أفعل ذلك حتى يعطيني كل واحد منكم ديناراً إذا سلم ، فنقدناه ما طلب ووعدناه ما خطب ، وآبت يده إلى جيبه فأخرج قطعة

ديباج فيها حُقّة عاج ، قد ضُمّن صدرها رقاعا ، وحذف كل واحد منا بواحدة منها »[1] والطريف أن يستمر خداعه وأن ينقدوه ما وعدوه بعد سلامتهم من الغرق ، « فلما سلمت السفينة وأحلّتنا المدينة اقتضى الناس ما وعدوه فنقدوه . » !!

إيمانهم بشياطين الشعر : ويحدثنا الهمذاني في مقامة أخرى عن إيمان بعض الناس بشياطين الشعر ، أولئك الذين يوحون إلى الشعراء أشعارهم ، وليس بعيداً أن تكون لهذه الأسطورة الجاهلية ذيول في أذهان بعض الناس ؛ ففي المقامات أن عيسى بن هشام يدهش حين يسمع أن قصيدة :

بان الخليط ولو طووعت ما بانا وقطّعوا من حبال الوصل أقرانا

ليست لجرير ، وإنما هي لرجل آخر هو أبو مُرّة ...، وتجري بينهما محاورة يتهم ابن هشام فيها أبا مرة بالانتحال ، فيكشف أبو مرّة أمره ويقول : « وكنت أكتمك حديثي وأعيش معك في رخاء لكنك أبيت فخذ الآن : فما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا ، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبو مرّة ، قال عيسى بن هشام : ثم غاب ولم أره . »[2]

ولسنا نريد استقصاء الأمثلة الدالة على خصائص عقلية العامة ومعتقدهم ، إذ سيمرّ بنا كثير من ذلك حين نتحدث عن خصائص القوم عامة وسذاجتهم وحين نتحدث عن الكدية والمكدين وما كانوا ينصبون للقوم من شراك وغير ذلك مما يدل على النفس السليمة والعقل الساذج ، وللكدية والمكدين في المقامات حديث طويل سنخصّه ببيان من التفصيل .

---

(١) المقامة الحرزية : ١٢٤ .

(٢) المقامة الإبليسية : ١٩٣ .

لغتهم : لغتهم أو كلامهم لا نعني به هنا أسلوبهم ذلك الذي عرفناه في إنشاء القرن الرابع وأدبه ، وإنما نريد به ما كان يدور على ألسنتهم من حكاية مرتجلة وحوار غير مشذّب ، وكلام عام وشتائم .. مما لم يذكره التاريخ ؛ لأنه لم ينطق به عظيم ، ولم يحفظه الأدب ، لأنه بعيد أحياناً عن « الأدب » .

أما الحكايات والقصص فإن أردنا معناها أو محتواها فهو في المقامات واضح جليّ ، وقد رأينا ذلك حين استعرضنا موضوعات المقامات ، وأما إن أردنا منها أسلوبها ، وهو الذي كنا نودّ معرفته ، فلن تفيدنا المقامات ، في معرفته شيئا لأن صاحبها كما نعلم كتبها بأسلوبه المصطنع ، وأنطق الأشخاص فيها بكلامه المسجّع . على أن البديع حاول أن يُنطق كل شخص بما يناسب مقامه ، فكان لصاحبة الحانة أسلوب ، وللحمّاميّ أسلوب ، وللسّوادي أسلوب ...

شتائمهم : وأما شتائمهم فالهمذاني لا يخجل من نقلها إلينا ، وهي ليست أقل قذارة من شتائم رعاع اليوم إن لم تفقها إفحاشاً وإقذاعا .

وقد مرّ معنا أن في المقامات ما يستحي الأديب من قراءته ويخجل من شرحه وأن الكتّاب أغفلوا المقامة الشامية وبعض المقامة الرصافية لما فيها من بذاءة وإفحاش[1] .

وقد يكتفي الهمذاني في بعض الأحيان بالإشارة إلى السباب[2] والشتم دون توضيح أو تفصيل ، كأن يقول : « فعمد إلى أعراض يسبّها . » وقد

---

(١) مقدمة المقامات : ٧ وانظر ما سبق في ص : ٢٥ .

(٢) المقامة الأرمينية : ١٩٧ .

يصرّح ويفصّل كما فعل حين نقل ملاسنة جرت بين اثنين من المستخدمين في أحد الحمّامات[1] وانتهت بانسلال عيسى بن هشام وهو « يسبّ الغلام بالعضّ والمصّ » . بل إن بديع الزمان يجعل من إحدى مقاماته مسرحاً لاثنين من أبطالٍ الشتيمة يتنافسان فيها ويأتيان بكلام اضطررنا إلى حذفه من المقامة ؛ وذلك في المقامة الدينارية التي يعد عيسى بن هشام فيها أن يهب ديناراً لأمهر الرجلين في السبّ والشتم وقال : « ليشتم كل منكما صاحبه فمن غلب سلب ومن عزّ بزّ . »[2] وكانت منافسة حامية بين أبي الفتح الاسكندري الذي قذف من السباب المرّ والشتم القبيح حتى عجز عيسى بن هشام عن تفضيل أحدهما على الآخر ، فقال : « فوالله ما علمت أي الرجلين أوتر ، وما منهما إلا بديع الكلام عجيب المقام ألدّ الخصام ، فتركتهما والدينار مشاع بينهما وانصرفت وما أدري ما صنع الدهر بهما . »[3]

على أننا إذا لم ننقل الكثير من كلامهم لفحشه ، فلا بدّ لنا من الإشارة إلى أنهم ما كانوا يجدون في قوله واستعماله شيئا من الحرج ، وكما قيل : لكل مقام مقال ، فكذلك لكل يوم كلام . وليس أدلّ على شيوع اللفظ المستهجن والكلمة الفاحشة على ألسنتهم وعدم استنكارهم لها من استعمال أكابرهم لها وصدورها عنهم ، يؤيد ذلك ويؤكده مانقله الثعالبي من هجاء الصاحب بن عباد لخصومه[4] ، ومن كلام الصابي في الهجاء أيضاً[5]، فإذا كان أمثال

---

(١) المقامة الحلوانية : ١٨٠ .

(٢) المقامة الدينارية : ٢٢٥ .

(٣) المقامة الدينارية .

(٤) يتيمة الدهر ٣ : ١٠٢ .

(٥) يتيمة الدهر ٢ : ٦٣ ـ ٦٥ .

الصاحب والصابي لايترفعون عن اللفظ البذيء والمعنى السافل فلا عجب في قذارة شتائم العامة وفحشهم في السّباب .

هيئاتهم : قد لا يكون هناك اختلاف في الهيئات العامة للناس بين عصر وعصر أو بين مكان ومكان ، ولكن الهيئات الخاصة والملابس تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، وباختلاف المراتب والأعمال . ونحن نستطيع الآن أن نميز شعبا من شعب من أشكال أفراده أو لباسهم أو لباس رؤوسهم ، بل ربما نستطيع أن نستدل على شيء من أذواقهم إذا استطعنا أن نعرف أنواع ثيابهم وألوانها . ولننظر الآن كيف كانت هيئات الناس الخاصة ؟ وكيف كانت ملابسهم في المجتمع الذي عاش فيه الهمذاني ؟

الحق أننا لا نجد في المقامات صورة كاملة للهيئات والملابس في ذلك العصر ، وقد كنا نودّ لو عني الهمذاني بوصف الثياب وأشكالها والأردية وألوانها ... أكثر مما فعل ، إذاً لكانت عندنا صورة واضحة ملوّنة لإنسان ذلك العصر من تاريخنا . على أن أبا الفضل لم يغفل ذلك إغفالا تاماً وإنما قصّر فيه ، وما عليه في ذلك لأنه لم يكن يريد من مقاماته إذ ذاك ما نريده نحن منها اليوم .

لقد ذكر الهمذاني في مقاماته كثيراً من الصفات الخارجية لأناس مختلفين من قضاة ، كانوا يضعون على رؤوسهم قلانس كبيرة كالدنان ، وكان بعضهم يدير فضل العمامة من تحت حنكه كقاضي نيسابور الذي ذكره عيسى بن هشام فقال « اجتاز بي رجل قد لبس دنيّة وتحنّك بسنيّة[1] . » وقد يفصّل

---

(١) المقامة النيسابورية : ٢٠٧ .

أكثر من ذلك في موضع آخر فيقول : « وقد لبس دنّيّته وسوّى طيلسانه وقصّر سباله وبيّض لحيته[1] ... » . وقد يذكر **صفات عامة** تكفي لبيان شخصية صاحبها من خلال مظهره ، كأن يقول عن أحد الشباب إنه في « زِيّ ملكي » ليدلّ بذلك على أنه ليس من رجال العمائم بل هو ثريّ أنيق .

ويبدو أن **العمامة** هي لباس الرأس الشائع عندهم ، فلقد مرّ ذكرها في أكثر المقامات ووضعتها شخصيات مختلفة ، والفرق بين الأشخاص إنما هو بالنسبة إلى العمامة ، في شكلها أو حجمها ...وأما لباس القدم **فالخُفّ** ، وكثيراً ما ذكره وذكر حداثته أو قدمه ... وذكر بعض ما يتصل به من عادات ، كإخفاء السكّين فيه وذلك حين قال في المقامة الأسدية : « ثم دنا إليّ لينتزع الخفّ ومددت يدي إلى سكّين كان معي في الخفّ »[2] .

وأما **أهل اليسار** فهم من الثياب في « حِبَر وشاء »[3]، وكثيراً ما وقف عندهم ووصف آثار النعمة عليهم .

ويمرّ الهمذاني بأصحاب الصناعات المختلفة فلا يغفل عن إلقاء نظرة سريعة مجملة تبيّن الشكل أو ترسم الخطّ العريض من الصورة ، فها هو ذا **حلاّق** « لطيف البنية مليح الحلية في صورة الدمية »[4] . وتلك **صاحبة حانة** « ذات شكل ودلّ ، ووشاح منحلّ ، إذا قتلت ألحاظها أحيت ألفاظها[5] ....

---

(١) المقامة النيسابورية : ٢٠٨ .

(٢) المقامة الأسدية :٤١ .

(٣) المقامة البصرية : ٦٧ .

(٤) المقامة الحلوانية : ١٨٣ .

(٥) المقامة الخمرية : ٢٤٨ .

وأما **المكدون** فقد كان نصيبهم في المقامات أكبر من نصيب غيرهم ، وذلك لكثرة ما تعرّض الهمذاني لهم ولأخبارهم ، وهو يقدّم لنا صوراً مختلفة لهم ؛ فمنهم من « لفّ رأسه ببرقع حياءً ، ونصب جسده وبسط يده ، واحتضن عياله وتأبّط أطفاله ، وهو يقول بصوت يدفع الضعف في صدره والحَرَض في ظهره[1] .. » ومنهم من « يخبط الأرض بعصا على ايقاع لا يختلف ... وهو حُزُقّة كالقَرَنْبَى أعمى مكفوف ، في شملة صوف ، يدور كالخدروف ، متبرنساً بأطول منه ، معتمداً على عصا فيها جلاجل ، يخبط الأرض بها على إيقاع غنج ، بلحن هزج ، وصوت شج من صدر حرِج .. »[2] ومنهم « ذو طِمرين قد أرسل صِوانا ، واستتلى طفلاً عُريانا ، يضيق بالضر وسعه ، ويأخذه القرّ ويدعه ، لا يملك غير القشرة بردة .. »[3] ومنهم من « طلع برُكوة قد اعتضدها ، وعصا قد اعتمدها ، ودنيّة قد تقلّسها ، وفوطة قد تطلّسها ، يرفع عقيرته .. »[4]

ومن المكدين طائفة يسير أفرادها في الطرقات والأسواق مجتمعين وحّدهم الغرَض ، يتقدّمهم واحد منهم « قد لفّوا رؤوسهم وطلوا بالمغرة[5] لبوسهم ، وتأبّط كل واحد منهم حجراً يدقّ به صدره ، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه ويدعو ويجاوبونه[6] . » .

والهمذاني لا ينشغل بأزياء القضاة والأثرياء وأصحاب المهن والشحّادين

---

(١) المقامة الأزاذية : ١٤ .

(٢) المقامة المكفوفية : ٨٣ .

(٣) المقامة البحارية : ٨٧ .

(٤) المقامة الأذربيجانية : ٤٩ .

(٥) المَغْرة : الطين الأحمر .

(٦) المقامة الساسانية : ١٩٧ .

عن سواهم ؛ فالقضاة بقلانسهم الكبيرة وأثوابهم الفضفاضة ولحاهم البيضاء ... ، وأصحاب الصناعات وما اتخذ كل منهم من ملبس يلائمه .. ، والشحّادون وهزالهم وأطمارهم وعصيّهم وبراقعهم ... ، كل ذلك لا يشغل أبا الفضل عن تصوير **أهل الريف** أو السَّواد حين يغدون إلى المدينة وقد حملوا ما تنتجه أراضيهم على دوابّهم ليبيعوه في أسواق بغداد ، ويعودوا بالفضلات سماداً للأرض ... ، ومن يقرأ المقامة البغدادية يتعرّف إلى سواديّ من هؤلاء ، ويراه وقد بلغ به الجهد والمشقة ، وبدت عليه سيماء البساطة والسذاجة ، بل يرى جانبا من صورته وطرفاً من إزاره .. ويرى تلك العقد التي انعقدت على المال في طرف الإزار على نحو ما يفعل بعض أهل الريف في عصرنا الحاضر ؛ إنه « سوادي يسوق بالجهد حماره ، ويطرّز بالعقد إزاره[1] » وأما ابن هشام فلم يكن « معه عقد على نقد[1] » .

وأما إذا كان الريفيّ من ذوي الغنى واليسار ، فإن عُقد الإزار لا تكفي لحفظ المال وإنما يضعه في جراب أو كيس كذلك الذي أقبل ومعه « جراب دنانير[2] » أو الذي قبض من كيسه قبضة الليث[3] ، أو الذي أحال المشكلة إلى الكيس وقال : يحلّ الكيس ما شئت[4] .

وهكذا صوَّر لنا الهمذاني بعض أفراد مجتمعه ومرَّ بهم من أمامنا بأشكالهم وملابسهم ...

٢ـ المجالس الأدبية ـ المناظرات والجدل ـ القصص

أخبار المناظرات في كتب التاريخ : من أبرز مظاهر النشاط

---

(١) المقامة البغدادية : ٦٤ .

(٢) المقامة الصيرية : ٢١٥ .

(٣) المقامة الكوفية : ٣١ .

(٤) المقامة السجستانية : ٢٨ .

الفكري في القرن الهجري الرابع تلك المناظرات والمحاورات التي كان القوم يعقدونها ويخصونها بنصيب وافر من اهتمامهم ووقتهم . ومن تلك المناظرات ما كان متصلاً بالأدب ؛ نثره وشعره ، ألغازه وأحاجيه ، ومنها ما كان ذا صلة بالعقائد والمذاهب الدينية ..

وقد كان القرن الرابع فترة صراع عنيف بين أفكار كثيرة وفِرق متعددة ، والتاريخ إنما يذكر من هذه المناظرات ما كان في حضرة خليفة أو وزير ، أو ما اشترك فيه واحد من هؤلاء وأولئك ، أو ما ترك أثراً يدعو إلى ذكره ، ويغفل ما دون ذلك .

وفي كتب الأدب وتراجم الأدباء ما يدل على أن المناظرات كانت أمراً منتشراً بينهم ، وأنها لم تكن في بعض الأحيان لغير الطموح إلى الشهرة وشهوة النصر ، وأن المتناظرين كثيراً ما كانوا يحشدون لها الأنصار والأتباع على نحو ما نرى اليوم في المباريات الرياضية ، بل لقد كانت تلك أيضاً مباريات رياضية إلا أن السلاح المتبارَى به كان لسانا مبيناً ولفظاً معبّراً وفكراً سديداً .

ومن تلك المناظرات المشهورة في التاريخ مناظرة الكسائي وسيبويه في بغداد حول مسألة من مسائل النحو[1] . والمناظرات التي دارت حول مشكلة خلق القرآن . ولعل من أطرفها تلك التي دارت بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متّى بن يونس في المفاضلة بين النحو والمنطق[2] ، وقد جرت سنة ٣٢٠

---

(١) وهي المسألة المعروفة في النحو باسم المسألة الزنبورية . انظر مغني اللبيب ١ : ٩٣ .

(٢) تجد أخبار هذه المناظرة في كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ١ : ١٠٧ ـ ١٢٨ .

هـ[1] . ومن تلك المناظرات ما دار بين الخوارزمي وبديع الزمان ممّا سبق ذكره[2] .

ولنسأل هل استطاع الهمذاني أن يقدم لنا في مقاماته صورة عن ذلك الصراع الفكري الذي دار في مناظرات القوم الأدبية والمذهبية ؟

المناظرات الأدبية في المقامات : أما المناظرات الأدبية في المقامات فمنها ما يتصل بأسلوب الهمذاني وفنّه في التلاعب بالألفاظ ، كتلك التي تدور حول الأحاجي ، ومنها المقامة الشعرية التي حدثنا فيها عيسى بن هشام فقال « كنت ببلاد الشام وانضمّ إليّ رفقة ، فاجتمعنا ذات يوم في حلقة ، فجعلنا نتذكر الشعر ، فنورد أبيات معانيه ونتحاجى بمعاميه ... » وكان بينهم فتى سألوه وسألهم فقال « أين أنتم من تلك الأبيات وما فعلتم بالمعمّيات ، سلوني عنها . فما سألناه عن بيت إلا أجاب ولا عن معنى إلا أصاب ... ثم عطف علينا سائلاً وكرّ مباحثاً فقال : عرّفوني ببيت شطره يرفع وشطره يدفع ؟ وأي بيت كله يصفع ؟ وأي بيت نصفه يغضب ونصفه يلعب ؟ وأي بيت كله أجرب ؟ وأي بيت عروضه يحارب وضربه يقارب ؟ وأي بيت كله عقارب ؟ وأي بيت سُمج وضعه وحسن قطعه ؟ وأي بيت لا يرقأ دمعه ؟؟ .. »[3] ثم يستطرد فيسألهم نحو خمسين سؤالاً كلها من هذا الطراز العجيب ، ويمهلهم للجواب عنها أياماً مما يدلّ على تكرار مثل هذه الاجتماعات ، وهو لا يمتنع من الإجابة عن بعضها على سبيل المثال فيقول : « اختاروا من هذه المسائل خمساً لأفسّرها واجتهدوا في الباقي أياما ، فلعل إناءكم يرشح ولعل خاطركم يسمح ، ثم

---

(١) لأنه كان عمر السيرافي أربعين سنة ، ومولده في سنة ٢٠٨ هـ . وانظر الامتاع والمؤانسة ١ : ١٢٨ .

(٢) انظر ص : ١١ وما بعدها .

(٣) المقامة الشعرية : ٢٣٠ .

إن عجزتم فاستأنفوا التلاقي لأفسّر الباقي[1] . »

ولعل هذا المجلس يعطينا فكرة عن حب القوم للمجالس الأدبية والتنافس في حلّ المعمّيات الشعرية ، مما يحتاج إلى اطلاع واسع وحفظ كثير .

وكذلك الأمر في المقامة العراقية إذ يسأل عيسى بن هشام أبا الفتح الاسكندري : « بأي العلوم تتحلّى ؟ فقال : لي في كل كنانة سهم ، فأيها تحسن ؟ قلت : الشعر ، فقال : هل قالت العرب بيتاً لايمكن حلّه[2] .. ؟ » ويتابع أسئلته وهي كلها من هذا النوع .

ومن المقامات الأدبية ما يتصل بآراء الهمذاني في الأدب والنقد كأن يوضح لنا رأيه في امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وجرير والفرزدق والجاحظ وابن المقفع ... وذلك من خلال بعض المحاورات التي دارت في مجالس أدبية وصفتها المقامات .

رأي الهمذاني في امرئ القيس : يسأل عيسى بن هشام صاحبه أبا الفتح في المقامة القريضية فيقول : ما تقول في امرئ القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها ، واغتدى والطير في وكناتها ، ووصف الخل بصفاتها . ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يُجد القول راغبا ، ففضل من تفتّق للحيلة لسانه وانتجع للرغبة بَنانه .

النابغة : قلنا : فما تقول في النابغة ؟ قال : يثلب إذا حنق ويمدح إذا رغب ويعتذر إذا رهب ، ولا يرمي إلا صائبا .

زهير : قلنا : فما تقول في زهير ؟ قال : يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه .

---

(١) المقامة الشعرية : ٢٣٣ .

(٢) المقامة العراقية : ١٥٠ .

طرفة : قلنا : فما تقول في طرفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافي ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أغلاق خزائنه .

جرير والفرزدق : قلنا : فما تقول في جرير والفرزدق ؟ وأيها أسبق ؟ فقال : جرير أرق شعراً وأغزر غزرا ، والفرزدق أمتن صخراً وأكثر فخرا ، وجرير أوجع هجواً وأشرف يوما ، والفرزدق أكثر روما وأكرم قوما . وجرير إذا نسب أشجى وإذا ثلب أروى وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إذا افتخر أجزى وإذا احتقر أزرى وإذا وصف أوفى . »[1]

القدماء والمحدثون : وينتقل الهمذاني بعد ذلك إلى الموضوع الذي طالما تناوله الكتّاب وتباينت فيه الآراء ، فيسأل على لسان ابن هشام قائلاً « قلنا : فما تقول في المحدَثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : المتقدمون أشرف لفظاً وأكثر من المعاني حظا ، والمتأخرون ألطف صنعاً وأرق نسجا ...»[2]

الفرزدق وذو الرمّة : ويُجري الهمذاني ، في مقامة أخرى ، مقابلة بين الفرزدق وذي الرمة ، ويحدثنا من خلالها عن احتقار الفرزدق لغيلان وازدرائه لشعره واستصغاره لشأنه ، كما يحدثنا فيها أيضاً عن احتقار الفرزدق وجرير للصلتان العبدي والبعيث فيقول في المقامة الغيلانية : « بينا نحن بجرجان في مجتمع نتحدث ، ومعنا يومئذ رجل العرب حفظاً ورواية وهو عصمة بن بدر الفزاريّ ، فأفضى بنا الكلام إلى ذكر من أعرض عن خصمه حلماً ، ومن أعرض عن خصمه احتقاراً ، حتى ذكرنا الصلتان العبدي والبعيث وما كان من احتقار جرير والفرزدق لهما ، فقال عصمة : سأحدثكم بما شاهدته عيني ولا أحدثكم عن

---

(١) المقامة القريضية : ١٠ .

(٢) المقامة القريضية : ١٢ .

غيري[1] ... » ويحدثهم أنه اجتمع بغيلان في إحدى سفراته ، وبينما هما في الطريق يستريحان يشعر ذو الرمة أن الفرزدق منه على مدى الصوت فيرفع صوته بهجائه حتى يبلغ قوله :

تعاف الأكارم إصهارهم ... فكلّ أياماهم عانس

فلما بلغ هذا البيت تنبّه ذلك النائم - يعني الفرزدق - وجعل يمسح عينيه ويقول : أذو الرميمة يمنعني النوم بشعر غير مثقّف ولا سائر ؟ فقلت : يا غيلان من هذا ؟ فقال : الفرزدق ، وحمي ذو الرمة فقال :

وأما مجاشع الأرذلون ... فلم يسق منبتَهم راجس
سيعقلهم عن مساعي الكرام ... عقالٌ ويحبسهم حابس

فقلت : الآن يشرق فيثور ويعم هذا قبيلته بالهجاء ، فوالله ما زاد الفرزدق على أن قال : قبحاً لك يا ذا الرميمة أتعرض لمثلي بمقال منتحل ، ثم عاد في نومه كأن لم يسمع شيئاً ، وسار ذو الرمة وسرت معه وإني لأرى فيه انكساراً حتى افترقنا[2] .. »

الجاحظ وابن المقفع : يخص الهمذاني الجاحظ بمقامة يسمّيها « المقامة الجاحظية » يتعرض فيها للجاحظ ويحاول أن ينال منه ، وكأن تنافس أهل الصناعة قد أوغر صدره عليه ، وكأن الهمذاني يرى في الشعر الذي نظمه ميزة يمتاز بها عن الجاحظ الذي انفرد بالنثر دون الشعر !!

يرد ذكر ابن المقفع والجاحظ في إحدى الولائم ، ويقص الهمذاني ذلك بلسان راويته فيقول « ونحن في الحديث نجري معه حتى وقف بنا على ذكر

---

(١) المقامة الغيلانية : ٤٣ .

(٢) المقامة الغيلانية : ٤٧ .

الجاحظ وخطابته ، وابن المقفع ودرايته . ووافق أول الحديث آخر الخوان ، وزلنا عن ذلك المكان . فقال الرجل : أين أنتم من الحديث الذي كنتم فيه ، فأخذنا في وصف الجاحظ ولَسَنه وحسن سَنَنه في الفصاحة وشننه فيما عرفناه . فقال : يا قوم لكل عمل رجال ولكل مقام مقال ، ولكل دار سكان ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم لبطل ما اعتقدتم . فكلّ كشر له عن ناب الإنكار وأشمّ بأنف الإكبار ، وضحكت له لأجلب ما عنده وقلت : أفدنا وزدنا ، فقال : إن الجاحظ في أحد شقّي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصّر نظمه عن نثره ، ولم يُزرِ كلامه بشعره . فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً ؟ قلنا : لا ، قال : فهلمّوا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات قليل الاستعارات قريب العبارات ، مُنقاد لعريان الكلام يستعملهُ ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة ؟ قلنا : لا »[1] .

وغير خاف أن الهمذاني يهاجم الجاحظ بأسلوب المدافع عنه ، وأنه يريد الطعن على أسلوبه في النثر بعد أن جرّده من الفضل في الشعر .. وما أحسب وراء ذلك إلا اعتقاد الهمذاني بأن « لكل زمان جاحظاً » كما قال[2] .

تحصيل العلم : ويحدثنا بديع الزمان عن رأيه في اكتساب العلم ووسيلة تحصيله فيقول « طلبته فوجدته بعيد المرام ، لا يصطاد بالسهام ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى في المنام ، ولا يضبط باللجام ، ولا يورث عن الأعمام ولا يستعار من الكرام ، فتوسلت إليه بافتراش المدر واستناد الحجر ، وردّ الضجر

---

(١) المقامة الجاحظية : ٧٩ .

(٢) لم يترك شارح المقامات الأستاذ الشيخ محمد عبده هذا الرأي بدون تعليق ، وإنما عقب عليه وسفّه رأي الهمذاني فيه . المقامات حاشية الصفحة : ٨١ .

وركـوب الخطر ، وإدمـــان السهر واصطحـــاب السفر وكثرة النظر[1] .. »
ويستطرد معدّداً ما يعتقده من وسـائل تحصيل العلم من بحث وتحقيق ودراسـة وتدقيق ...

على أننا لن نتعرض لآراء بديع الزمان في الأدب والنقد وما إليهما ؛ فهـذا كله إنما جاء في سيـاق الكلام على مجـالس القوم ومنـاظراتهم الأدبيـة ، ولكننـا نرى أن بديع الزمـان نجح في التعبير عن آرائـه ، أيـاً كانت ، فجـاءت صريحـة واضحة جريئة دالّـة على مـدى انطبـاقهـا على الواقع أو موافقتهـا للأحكام التي أطلقها الأدباء والنقاد في تلك المسائل .

المناظرات والجدل المذهبيّ : لم يقف الهمذاني في مقاماتـه عنـد حـدود المناظرات الأدبية ، ولم يكتف بالمنـاظرات التي كان الأدب أو الأدبـاء موضوعـاً لها وإنمـا تجـاوزهـا إلى المنـاظرات الفكريـة الجـدليـة التي تتخـذ من العقـائـد والمذاهب موضوعاً تدور حوله ؛ فعرض علينا في مقامـاتـه طـائفـة طريفـة من تلك المناظرات ؛ إنه يردّ في المقامة المارستانية مثلاً على المعتزلة ، ويسفّه آراءهم ولكنْ على لسان مجنون في « المارستان » ، فكانت مقامـة ذات حـدّين ، ينطق المجنون فيها بالحكمة ، مخاطباً ـ وهو الـذي لا عقل لـه ـ طـائفـة تزعم أن العقل إمامها وقائدها .. !!

مع المعتزلـة : يقول مجنـون في « المـارستـان » بعـد أن عرف أن أمـامـه عيسى بن هشام وأبا داوود العسكري أحد متكلمي المعتزلـة : « شـاهت الوجوه وأهلها ، إن الخيرة لله لالعبده ، والأمور بيد الله لا بيده ، وأنتم يا مجوس هـذه الأمـة تعيشون جبرا وتموتون صبرا وتسـاقون إلى المقـدور قهرا . و﴿ لـو كنتم في

---

(١) المقامات العلمية : ٢١٠ .

بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾[1] أفلا تنصفون إن كان الأمر كما تصفون ؟ وتقولون : خالق الظلم ظالم ، أفلا تقولون : خالق الهلك هالك ؟ أتعلمون يقيناً أنكم أخبث من إبليس دينا ، ﴿ قال : رب بما أغويتني ﴾[2] ، فأقرّ وأنكرتم ، وآمن وكفرتم . وتقولون : خُيّر فاختار ! وكلاّ فإن المختار لا يبعج بطنه ... ياأعداء الكتاب والحديث بم تطيّرون أبالله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ إنما مَرَقت مارقةٌ فكانوا خَبَث الحديث ، ثم مرقتم منها فأنتم خَبَث الخبيث ، يا مخانيث الخوارج . »[3]

ولا يكتفي الهمذاني بكل هذا الإزراء ، وإنما يسير بخبث إلى حرمة الزواج منهم ، وهو يترك المجنون ينصح بذلك فيقول : « وأنت يابن هشام تؤمن ببعض وتكفر ببعض ؛ سمعت أنك افترشت منهم شيطانة ، ألم ينهك الله عزّ وجلّ أن تتخذ منهم بطانة ، ويلك هلاّ تخيَّرت لنطفتك ونظرت لعقبك ... »[4]

وكذلك نجد في المقامة الوعظية وغيرها كثيراً من الأحاديث التي عقدها بديع الزمان بلسان ابن هشام مما يتصل بالردّ على الملحدين ومنكري البعث .

وبعد ، فهذه طائفة من مجالس القوم الأدبية والجدلية ، وأحاديثهم ومناظراتهم وبعض آرائهم في الأدب والنقد ، قدمها لنا الهمذاني ، وقد ضمنها آراءه في مسائل لاشك أنها كانت مدار البحث في عصره .

أخبار القصة والقصاصين : للقصة أثر عظيم في التوجيه ، ولأصحابها

---

(١) سورة آل عمران ٣ : ١٥٤ .

(٢) آية تتتها (لأزيننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) الحجر ١٥ : ٣٩ ـ ٤٠ .

(٣) المقامة المارستانية : ١٢٧ .

(٤) المقامةالمارستانية : ١٣١ .

ذكر قديم في التاريخ . وقد كان لبعض القصاصين منازل رفيعة وأخبار عجيبة ، وهم منذ القديم يحضرون مجالس الخلفاء والوزراء ؛ يقصّون ويسلّون ويعظون ؛ فكان منهم ندمان ، ومنهم قضاة ، وكان منهم في صفوف العامة موجّهون ومعلّمون ومخلصون ومتكسّبون .

وذكر المقريزي أن القصص قصصان : قصص العامة ، وقصص الخاصة ، وذكر أن القاص في النوع الأول يجتمع الناس إليه فيعظهم ويذكّرهم ، وأما القاصّ في النوع الثاني فيعيّنه الحاكم وربما كان القاضي نفسه .[1]

ونقل آدم متز أن القُصَّاص « في القرن الرابع نزلوا إلى غمار العامة ، وصاروا يقصون لهم القصص الدينية والأساطير والنوادر في المساجد والطرق ، وينالون منهم مالاً كثيرا ، وكان الرجال والنساء يجتمعون حول القاص فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدّون أيديهم ، وكان العامة يحبون القصاص حباً شديدا . ويحكى عن الطبري أنه أنكر على قاصٍّ في بغداد فرمى العامة باب داره بالحجارة حتى سدّوه وصعب الخروج منه . وكان القصاص من أكبر مثيري الفتن القديمة بين أهل السنة والشيعة . ويضع الهمذاني القصاص ، في المقامة الساسانية ، بين طبقة المشعوذين المخرقين من بني ساسان »[2] .

وما نقله آدم متز يدل على نزول القصاص إلى العامة ، وأما رأيه في وضع الهمذاني للقصاص بين المشعوذين المخرقين فغريب ، إذ ليس في المقامة الساسانية التي أشار إليها ذكر للقصة ولا للقصاص ، ولست أدري كيف وهم في ذلك !

---

(١) الخطط والآثار ٢ :٢٥٣ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٢ : ٧٧ .

ويبدو أن القصاص كثروا كثرة جعلت الصالح القليل منهم يضيع في زحمة الفاسد الكثير ، فلم نعد نستطيع أن نميز بيسر بين الواعظ الصادق والقاصّ المتكسِّب حتى اضطر بعض العلماء إلى تنبيه الناس على ضرورة التمييز بين الصالحين وغيرهم ، وهذا السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٥ هـ حين ذكر القصاص وفصّل في بيان الصفات المستحسنة فيهم .[١]

أما القصة من الوجهة الفنية فإن الهمذاني نفسه ـ بما كتب من مقامات ـ مثال صالح لما وصلت إليه القصة من مستوى فنيّ . والهمذاني في مجال القصة إنما يحوز إعجابنا بما حلَّل من نفسيات وصوّر من شخصيات ، بل بما وصلت إليه بعض مقاماته من مستوى فني جيّد .

يقول الأستاذ مارون عبود « وتمرّ بمقامات البديع فتعجب بالمقامة المضيرية إذ تراها قصة عصرية تنوء عن مضارعتها اليوم قصة في تحليل الشخصيات ودرس النَّفسيات .... والمقامة الأسدية والبشرية تعدّان من الأقاصيص ذوات العقد ، وإن كان إلى جانب هذه قصص كالمقامة الأزربيجانية التي تبدو كأنها كتبت بلا استعداد »[٢] ويجيب الأستاذ عن سؤال كثيراً ما يرد ، وهو : هل المقامة قصة ؟ فيقول : « نعم إنها قصة ، والفرق بينها وبين قصص اليوم كالفرق بين هندامك أنت وهندام جدّك رحمه الله .. »[٣] .

---

(١) الحضارة الإسلامية : ٧٨ نقلاً عن « بيان العارفين على هامش تنبيه الغافلين » : ٢٥ .

(٢) بديع الزمان : ٣٦ .

(٣) بديع الزمان : ٣٧ .

٣ ـ في الدُّور والأسواق

(الدور ـ المساجد ـ البيمارستانات ـ الحمّامات ـ المطاعم ـ الحوانيت ـ الخانات ـ الأسواق ..)

الدور في التاريخ : لسنا في حاجة إلى ذكر ما كان القوم عليه من عناية بالعمران وتفنن في هندسة الأبنية وزخرفتها ، فهذا أمر معروف عن حضارة القرن الرابع ، والحق أن كتب الحضارة وصفت لنا كثيراً من الأبنية والقصور ، وإن كانت قد اقتصرت على قصور الخلفاء والمساجد حيث كثر الإنفاق أو ظهرت آثار الفن وروعته ، وأما دور الشعب ومساكن الطبقة العامة فقد لا نعرف عنها الكثير من خلال تلك الكتب . ولعل أكثر ما نعرفه عنها مقتبس من بعض الكتب الأدبية التي تعرّضت في مناسبات مختلفة ، لوصفها ككتاب « الأغاني » و « المقامات » .

الدور في المقامات : لسنا نكتم أن الهمذاني لم يوفّ الدور حقّها من الوصف ، وأن حديثه عنها كان موجزاً وسريعاً ؛ إنه يذكر ما كلّفت من أموال ، وقد كانوا يتفاخرون بكثرة الإنفاق ، ويذكر أحياناً ما يتصل بدقة الصنعة وجمال الشكل .. وهو إذا فصّل ففي وصف باب أو حلقة ، وليس في وصف البيت وتخطيطه ، ومن الحق أن نشير إلى أن حديث الهمذاني عن الدور ووصفها لا يقارب ما نقله « آدم متز » مثلاً في الموضوع نفسه[1] قال

---

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٥١ وما بعدها .

الهمذاني على لسان أبي الفتح : « وانتهينا إلى باب داره ، فقال : هذه داري ، كم تقدر يا مولاي أنفقت على هذه الطاقة ؟ أنفقت عليها والله فوق الطاقة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرأيت بالله مثلها ؟ انظر إلى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها فكأنما خطّ بالبركار ، وانظر إلى حذق النجار في صنعة هذا الباب ، اتخذه من كم ؟ قل : ومن أين أعلم ؟ هو ساج من قطعة واحدة لا مأروض ولا عفن »[1] .

وواضح من هذا أنهم يصنعون أبواب بيوتهم من الخشب ويتخذون على الباب حلقة تدور بلولب يُطرق بها الباب ، وبالجملة كان الخشب يستعمل كثيراً وكان أحب أصنافه عند السراة خشب الساج الهندي[2] .

ويتابع الهمذاني حديثه عن الدار فيقول : « وهذه الحلقة تراها ؟ ... فيها من الشّبَه ستة أرطال ، وهي تدور بلولب في الباب ... ثم قرع الباب ودخلت الدهليز فقال : عمرك الله يا دار ، ولا خربك يا جدار ، فما أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ، تأمل بالله معارجها ، وتبيّن دواخلها وخوارجها ..[3] » وقال : « فقمت ، فقال : أين تريد ؟ فقلت : حاجة أقضيها . فقال : يا مولاي تريد كنيفاً ... قد جُصِّص أعلاه وصُهرج أسفله ، وسطح سقفه ، وفُرشت بالمرمر أرضه ، يزلّ عن حائطه الذرّ فلا يعلق ، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق ، عليه باب غير أنه من خليطي ساج وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج »[4] .

---

(١) المقامة المضيرية : ١١٣ .

(٢) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٦٠ .

(٣) المقامة المضيرية : ١١٤ .

(٤) المقامة المضيرية : ١٢٢ .

وقد كانت الدور موضعاً للإجتماع والسمر ؛ ففيها يجتمعون للسمر والطرب ، قال : « وجعلت للدار حاشيتي النهار[1] » وقال : « بت ذات ليلة في كتيبة فضل من رفقائي فتذاكرنا الفصاحة ، وما ودعنا الحديث حتى طرق علينا الباب .. »[2] .

المساجد في التاريخ : غير خاف أن المساجد من الموضوعات التي عنيت بها كتب الحضارة الإسلامية ؛ فوصفت بناءها وفنّها وزخرفتها ، وذكرت عدد العاملين في بنائها ومدى ما أنفق عليها ... وزاد بعض المؤرخين فتناول أحوال القوم فيها ؛ قال المقريزي .. إنهم كانوا يجتمعون في المساجد ، وقد يولمون فيها وينامون .. وروى لنا قصّة حدّث بها الأمير عليّ تاج الملك جوهر المعروف بالشمس الجيوشي ذكر أنهم اجتمعوا ليلة في مسجد فعملوا أسماطاً وأكلوا ثم تحدثوا وناموا .. وكانت ليلة باردة فناموا عند المنبر »[3] . وكذلك نقل آدم متز كثيراً من أخبار المساجد واجتماع القوم فيها ليلاً ونهاراً[4] .

المساجد في المقامات : لا يقف الهمذاني بنا خارج المسجد ليصفه لنا وإنما يأخذ بأيدينا إلى داخله ليطلعنا على ما يحدث فيه ويسمعنا الأحاديث التي تدور في حلقات القوم ؛ فقد كانوا يجتمعون في أفنية المساجد وتدور بينهم الأحاديث المختلفة ويمرّ بهم المكدون ...

لقد حدثنا الهمذاني عن إقبال القوم على الصلاة في المساجد وإجابتهم داعيها ، وعن عادة بعض الأئمة في إطالة الصلاة ، وعما يحدث بعد انقضائها من

---

(١) المقامة القريضية : ٩ .

(٢) المقامة الناجية : ١٩٩ .

(٣) الخطط والآثار ٢ : ٣١٩ .

(٤) الحضارة الإسلامية ٢ : ٨٥ وما بعدها .

مفـاجـآت المكـدين ، وقـد حـدث مرة أن « نودي للصلاة نـداء سمعتـه وتعيّن فرض الإجابة ، فـانسللت من بين الصحـابـة أغتنم الجمـاعـة أدركهـا »[1] وكانت صلاتهم طويلة « تقدّم الإمام إلى المحراب فقرأ فاتحة الكتاب ، بقراءة حمزة مـدّة وهمزة ... وأتبع الفاتحة الواقعة »[2] وانتهت الركعة الاولى « .. وقـام الإمـام إلى الركعة الثانية فقرأ الفاتحة والقارعة ، قراءة استوفى بهـا عمر السـاعـة ، واستنزف أرواح الجماعة ، فلما فرغ من ركعتيه ، وأقبل على التشّهـد بلَحيَيْـه ، ومـال إلى التحيـة بـأخـدعيـه ، وقلت : قـد سهّـل الله المخرج وقرّب الفرج ، قـام رجـل وقـال : من كان منكم يحبّ الصحـابـة والجمـاعـة ، فليعرني سمعـه سـاعـة . قـال عيسى بن هشـام : فلزمت أرضي صيـانـة لعرضي . فقـال : حقيق عليّ ألاّ أقول غير الحق ولا أشهد إلا بالصدق ... »[3] ويتابع حديثـه حتى يصل إلى مطلوبـه فيذكر حاجته إلى المال ..!

وكذلك يذكر الهمذاني تلبيـة الـدعوة إلى الصلاة في المقـامـة الحمريـة حين « ثوّب منـادي الصبح ... فبـادرنـا إلى الـدعوة وقمنـا وراء الإمـام قيـام البررة الكرام »[4] .

وأما دخول المكدين إلى المساجد فقد مرّ ذكره في المقامة البخـاريـة حيث يقول : « حدثنا عيسى بن هشام قال أحلّني جامع بُخـارى معهم وقـد انتظمت مع رفقة في سلك الثريا وحين احتفل الجامع بأهلـه طلع إلينـا ذو طمرين قـد أرسل صواناً واستتلى طفلاً عُريانا ... »[5] .

(١ و ٢) المقامة الأصفهانية ٥٦ و ٥٧ .

(٣) المقامة الأصفهانية : ٥٨ .

(٤) المقامة الحمرية : ٢٤٥ .

(٥) المقامة البخارية : ٨٧ .

ويشير الهمذاني إلى أنهم كثيراً ما كانوا يعرّجون على المساجد تخفيفاً لمشقة أو فراراً من حرّ فيقول في المقامة الرصافية : « خرجت من الرصافة أريد دار الخلافة ، وَحمارّة القيظ تغلي بصدر الغيظ ، فلما نصفت الطريق اشتدّ الحرّ وأعوزني الصبر ، فملت إلى مسجد قد أخذ من كل حسن سرّه »[١] .

البيمارستانات : إن اتخاذ الناس للبيمارستانات أمر قديم ، وقد ذكروا أن هذه الأماكن كانت منتشرة في القرن الرابع[٢] ، بل هي معروفة قبل ذلك التاريخ إذ قيل إن أول من بنى المارستان هو أحمد بن طولون بناه في مصر سنة ٢٥٩ هـ . وكانت أمور المارستانات بيد ذوي المناصب الرفيعة ، حكى ابن الأثير أنه توفي سنة ٣٩٦ عبد الرحيم المرزباني الأصبهاني قاضي خراسان وقال : « وإليه كان أمر البيمارستانات »[٣] .

وأما الهمذاني فيأخذ بأيدينا إلى مارستان البصرة ويسمعنا كلام بعض المجانين من نزلائه ، وقد سمعناه يردّ على المعتزلة[٤] ، وذلك حين دخل المارستان مع أبي داود المتكلم[٥] ، ورأينا أن الخطرين من نزلاء المارستان يقيّدون خوف أذاهم إذ أن أحدهم ما هو « إلا شيطان في أشطان »[٦] .

الحمّامات : كانت الحمامات معروفة منذ القديم ، ولكن عناية الناس بها زادت بعد الإسلام ، وذكر الطبري أنه لم يكن للفرس عهد بالحمامات قبل

---

(١) المقامة الرصافية : ١٦٥ .

(٢) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٤٧ وما بعدها .

(٣) الكامل ٩ : ٦٦ .

(٤) انظر ما سبق في ص : ٧٠ .

(٥) المقامة المارستانية : ١٢٧ .

(٦) المقامة المارستانية : ١٣٢ .

الإسلام . أما عند المسلمين فقد شاعت وانتشرت وتنافست البلاد في كثرتها ، على أن ذوي الورع لم يمدحوها ، ونقل عن عليّ أنه قال : « بئس البيت الحمّام ، تكشف فيه العورات وترفع فيه الأصوات ، ولا تقرأ فيه آية من كتاب الله » . وقد بلغ عدد الحمامات في النصف الأول من القرن الرابع في جانبي بغداد عشرة آلاف حمام[1]، ولم يغفل الهمذاني ذكر الحمامات في مقاماته وإنما تحدث عنها وذكر عناية القائمين عليها بزائريها من المستحمّين . لقد طلب ابن هشام أن يرشدوه إلى حمّام « واسع الرقعة نظيف البقعة ، طيب الهواء معتدل الماء »[2] فأشار إلى ما كان الناس يتوخونه في الحمام ، ثم دخل ابن هشام الحمّام وقال « وأتيناه فلم نر قوامه ، لكني دخلته ودخل على أثري رجل وعمد إلى قطعة طين فلطّخ بها جبيني ووضعها على رأسي .. »[3] ثم يتابع حديثه عما جرى له وكيف تشاجر عليه اثنان من المستخدمين كلّ يدّعي أنه له و « ما لبث أن دخل الأول فحيّا أخدع الثاني بمضومة فقعت أنيابه ، وقال : يا لكع مالك ولهذا الراس وهو لي ، وعطف الثاني على الأول بمجموعة هتكت حجابه ، وقال : بل هذا الراس حقّي ، وملكي في يدي ، ثم تلاكا حتى عييا .. »[4] .

وكأن الهمذاني قد أدخلنا حماماً وأطلعنا على ما يحدث فيه ، وكيف نستقبل لو ذهبنا إليه ، وأشار إلى أخلاق أصحاب هذه الحرفة ... ولسنا ندري سبب الخصام بين المستخدمين في الحمّام ولكن لعلّه أراد أن يشير إلى أن كلاً

---

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٦٢ .

(٢) المقامة الحلوانية : ١٨٠ .

(٣) المقامة الحلوانية : ١٨١ .

(٤) المقامة الحلوانية : ١٨١ .

من المستخدمين كان يشتغل لحسابه الخاص ، أو أن صاحب الحمام كان يحاسبهم على « الراس[1] » !

المطاعم والحوانيت والمآكل : تحدث كتاب « الوزراء » عن بعض ولائم القوم وعاداتهم فيها ، ووصف لنا مثلاً وليمة دعا إليها الوزير ابن الفرات جماعة من أصحابه ، وجاء في الحديث ذكر لبعض أنواع الطعام والعادات ، إلا أنه وغيره من أخبار التاريخ غير كاف لعرض صورة عن أسواق القوم ومطاعمهم الشعبية وما فيها من المآكل ؛ نعم نحن نجد فيها أخبار ولائم العظماء ونسمع أسماء أطعمة عربية وغير عربية ولكنا لا نستطيع تصوّر تلك الأطعمة لأنها سردت لنا أسماؤها دون أن توصف لنا .

وأما بديع الزمان فقد استطاع بوصفه للجزئيات أن يضع أمامنا صورة للسوق وما فيها من حوانيت ومناظر ، وللمطاعم وما فيها من مآكل ... ولنترك للهمذاني أن يأخذنا إلى تلك الأماكن كما أخذنا إلى الحمّام ، وأن يمرّ بنا عبر الطرقات ويقدّم لنا بعض المآكل :

يصل الغريب إلى البلدة فيشعر ـ كما شعر السوادي في بغداد ـ بالجوع يستولي عليه ، فيقدّمه الهمذاني أو ابن هشام إلى مطعم شعبي انتشرت منه روائح الشواء ... وفي هذا المطعم نجد اللحم والخبز والحلوى وكأننا في مطعم من مطاعم أحيائنا الشعبية في حي السيدة زينب بالقاهرة أو باب الجابية أو الدرويشية بدمشق .

ويصف الهمذاني لنا ما في هذا المطعم الشعبي من أطعمة فيفصّل ويجيد إجادة تجعلنا أمام ذلك الطعام أو تجعله أمامنا ، بل يقدّمه لنا حتى نكاد

---

(١) الوزراء : ٢٤٠ .

نذوقه ونعرف أنه يذوب كالصمغ قبل المضغ .. يقول الهمذاني : « ثم أتينا شوّاء يتقاطر شواؤه عرقاً وتتسايل جوذاباته مرقاً . فقلت : افرز لأبي زيد من هذا الشواء ثم زن له من تلك الحلواء . واختر له من تلك الأطباق وانضد عليها أوراق الرقاق ورشّ عليها شيئاً من ماء السمّاق ... ، فانحنى الشوّاء بساطوره على زبدة تنوره فجعلها كالكحل سحقاً وكالطحن دقاً ... وقلت لصاحب الحلوى : زن من اللوزينج رطلين، فهو أجرى في الحلوق وأمضى في العروق[1] » وإن كنا لا ندري ما اللوزينج فالهمذاني لا يتركنا كما يتركنا كتاب التاريخ أمام اسم مبهم الدلالة ولكنه يصفه ويوضحه فيقول : « وليكن ليليّ العمر يومي النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤي الدهن ، كوكبي اللون ، يذوب كالصمغ قبل المضغ ... »[2] .

ويذكر الهمذاني الماء المثلّج فيقول : ... « ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصارّة ويفثأ هذه اللقم الحارّة ... »[3] والماء المشعشع بالثلج ألذّ ما يتناوله الناس في الصيف ، ويحكى أنه يوم تولى ابن الفرات الوزارة ، وكان يوماً شديد الحر ، سقي في داره أربعون ألف رطل من الثلج في يوم وليلة[4] .

ويذكر الهمذاني في مقامات أخرى كثيراً من أنواع الأطعمة ؛ ففي المقامة الساسانية مثلاً يقول زعيم المكدين :

أريد منك رغيفا ... يعلو خواناً نظيفاً
أريد ملحاً جريشا ... أريد بقلاً قطيفا

---

(١) المقامة البغدادية :٦٥

(٢ و ٣) المقامة البغدادية : ٦٦ .

(٤) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٨٤ .

أريـــد لحمـــاً غريضـــا ... أريـــــد خـــلاً ثقيفـــا
أريـد جـديـاً رضيعـا ... أريـــد سخـلاً خروفـا
أريـــــد مـــــاءً بثلـــجٍ ... يغشى إنـــاءً طريفـــا
أريـــــد دنَّ مُـــــدامٍ ... أقـوم عنـــه نـزيفـا[1]

وفي المقامة المضيريـة يحدّثنـا عن المضيرة ويعـدّد المواد التي طبخت بهـا[2] ويذكر أن الخبز عنـدهم كانت أرغفتـه رقيقـة واسعـة ينضجونهـا في التنور فهي « أوراق الرقـاق »[3] أو هي « صـلائـق كأنهـا القبـاطيّ المنشّر أو الفـوهي الممصّر »[4] تطلع من « تنّـور مسجـور »[5] ويـذكر من مـآكلهم البقـل والسمـك والباذنجان والتفاح والأنقال ... يقول في المقامة المجاعية : « فما قولك في رغيف وبقل قطيف إلى خل ثقيف وخردل حرّيف وشواء صفيف ، وأوسـاط محشوّة وأكواب مملوّة وأنقال معـددة .. ولحم طريّ وسمـك نهري وبـاذنجـان مقليّ وراح قطربُّلي وتفـاح جنيّ ... »[6] كما يـذكر التمر مـع الـزبـدة التي هي « نهيـدة فِرق كهامة الأصلع »[7] وربما شربوا معهـا الحليب في « أقعب قـد احتلبن من الجلاد الهرمية .... »[8] . ومنها نوع يصنع من الدقيق الـذي يعجن بـالحليب ويشوى ويصنـع على أشكال مختلفـة كالكعـك ، ثم يصبّ عليـه العسـل ويشرب معـه الحليب ، وهو يبيّن لنا طريقة صنعه ويصفها خطوة خطوة[9] ، ومن ذبائحهم

---

(١) المقامة السـاسانية : ٩٧ .
(٢) المقامة المضيرية : ١٢٢ .
(٣) المقامة البغدادية : ٦٥ .
(٤) المقامة النهدية : ١٨٩ .
(٥) المقامة البغدادية : والأرمنية :١٩٦ .
(٦) المقامة المجاعية : ١٣٣ .
(٧ ـ ٩) المقامة النهدية ١٨٥ وما بعدها .

العتاق النجدية تقدَّم مع الخبز وبعض ما يقوّي الشهيّة كالخردل والأصباغ[1] .

ومن طعام فقرائهم الخبز اليابس والتمر الرديء وهو ما قدّم لابن هشام إذ يقول : « فأتتنا ابنته بطبق عليه جِلفة وحُثالة ولَويَّة »[2] .

وأما الأغنياء وأهل اليسار فقد ذكر ابن هشام بعض ما ناله عندهم من لذيذ المأكل والمشرب فقال : « فلم نزل في صبوح وغبوق نتغذَّى بالجدايا الرضّع ، والطباهجات الفارسية ، والمدقّقات الإبراهيمية ، والقلايا المحرّفة ، والكباب الرشيدي ، والحُملان ، وشرابنا نبيذ العسل ... ونَقْلنا اللوز المقشَّر ، والسكر والطَبْرْزَد ... »[3] « وكانت لنا طبّاخة حاذقة فاتخذت عشرين لوناً من قلايا محرّقات .. »[4] .

وهكذا دخلنا مطاعم القوم وشهدنا بعض ولائمهم وعرفنا بعض مآكلهم ، وما يزال الهمذاني يتقدّمنا في الأسواق حتى وقف بنا أمام بائع للفواكه حسن الذوق جيد الترتيب فهو قد « أخذ أصناف الفواكه وصنّفها ، وجمع أنواع الرطب وصفَّفها ...[5] » ثم وقف أمام بائع الألبان الذي صفَّف الأواني النظيفة وفيها أنواع الألبان ... [6] .

وأما صاحب الخبز فهو يُعنى بنظافة رغفانه ويرمي ما شك في نظافته حتى استغلّ ذلك أبو الفتح على نحو ما جاء في المقامة الأرمنية حين قال :

---

(١) المقامة النهدية ١٨٥ وما بعدها .

(٢) المقامة النهدية : ١٨٩ . والجلفة : قطعة الخبز اليابسة . واللويَّة : ما يخبأ .

(٣) المقامة الصيمرية : ٢١٦ .

(٤) المقامة الصيمرية : ٢٢١ .

(٥) المقامة الأزاذية : ١٤ .

(٦) المقامة الأرمنية : ١٩٧ .

« وسرنا في طلب أبي جابر فوجدناه يطلع من ذات يطن تُسجر بالغضا ، فعمد الإسكندري إلى رجل فاستاحه كفّ ملح وقال للخباز : أعرني رأس التنور فإني مقرور ، ولما فرّع سنامه وجعل يحدث القوم بحاله ويخبرهم باختلاله وينشر الملح في التنّور من تحت أذياله يوهمهم أن أذىً بثيابه . فقال الخباز : ما لك لا أبا لك ؟ اجمع أذيالك فقد أفسدت الخبز علينا . وقام إلى الرغفان فرماها وجعل الإسكندري يلقطها ويتأبطها .. »[1] .

الحانات : وما نزال نسير مع الهمذاني حتى يقبل الليل وتبدأ الحانات بفتح أبوابها واستقبال زبائنها ، ولكل حانة باب وكلاب ومستخدمون يتكفّلون بدوابّ الزبائن ، وصبايا حسان ، ومطربون ... ففي المقامة الخمرية أنه « لمّا حشرج النهار أو كاد نظرنا فإذا برايات الحانات أمثال النجوم في الليل البهيم ، فتهادينا بها السرّاء وتباشرنا بليلة غراء ووصلنا إلى أفخمها باباً وأضخمها كلابا .... فدُفعنا إلى ذات شكل ودلّ ووشاح منحلّ ، إذا قتلت ألحاظها أحيت ألفاظها ، فأحسنت تلقّينا .... وأسرع من معها من العلوج إلى حطّ الرحال والسروج .... قلنا : « هذه الضالّة وأبيك فمن المطرب في ناديك ؟ قالت : إن لي شيخاً ظريف الطبع طريف المجون ... »[2] .

في الطرقات : ولا يكتفي الهمذاني بأن يرينا ما على جوانب الطريق من مطاعم وحوانيت وحمامات وحانات وحلاقين ... وإنما يرينا أيضاً ما يعترض سبيل المارّة في عرض الطريق ، فمن قوم تحلّقوا حول قرّاد ، إلى صبية يستهزئون بالمارّة ... ففي المقامة القردية يقول : « بينا أنا في مدينة

---

(١) المقامة الأرمنية : ١٩٦ .

(٢) المقامة الخمرية : ٢٤٧ .

السلام أميس ميس الرجلة على شاطئ الدجلة ... إذ انتهيت إلى حلقة رجال مزدحمين ، يلوي الطرب أعناقهم ، ويشق الضحك أشداقهم ، فساقني الحرص إلى ما ساقهم حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون رؤية وجهه لشدة الهجمة وفرط الزحمة فإذا هو قرّاد يُرقص قرده »[1] .

وفي المقامة المضيرية أن أبا الفتح حين فرّ من وليمة صاحبه وجعل يعدو أخذ صاحبه يعدو خلفه ويصيح : « يا أبا الفتح المضيرة ... فظن الصبيان أن المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه »[2] وأخيراً ينبغي لنا أن نذكر أن هناك جزئيات تافهة ومع ذلك لم يغفل الهمذاني عن ذكرها ، وتلك ميزة أدبية تساعد على التوضيح ، ولا يقوى عليها من الأدباء إلا من كان شديد الملاحظة حادّ الذكاء لا تفوته ملاحظة الأشياء الصغيرة كما لا يفوته الحديث عنها ؛ فالهمذاني مثلاً يذكر أن بعض الناس كان يحمل ما يشتريه من السوق في منديل واسع كما يفعل بعض الناس اليوم ، وأن بعضهم كان يضع ما يشتريه في طرف إزاره كما في المقامة الأزاذية حين قبض من كل شيء أحسنه وقرض من كل نوع أجوده ، فجمع حواشي الإزار على تلك الأوزار ... »[3] .

أدواتهم : ما زالت الحضارة تقدم للإنسان اليوم الكثير من الأدوات والوسائل التي تملأ حياته راحة ورفاهية ، وتيّسر عليه العمل الشاق وتوفّر له الكثير من وقته ... وألف الإنسان ما يستعمل حتى نسي ما كان يتخذه سلفه الأول من أداة ومتاع ؛ لقد ألف الكهرباء حتى نسي شكل السراج ، وألف السيارة حتى نسي شكل جدّه وهو على دابّته ... ولقد ذكّرنا بديع الزمان

---

(١) المقامة القردية : ١٠١ .

(٢) المقامة المضيرية : ١٢٣ .

(٣) المقامة الأزاذية : ١٤ .

بالكثير من أدوات القوم وأثاثهم ؛ أما الأغنياء فإن عندهم « حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وخيلاً مسوّمة ، وقناطير مقنطرة ، وعُدّة وعديدا ومراكب وعبيدا .. »[1] وذكر أحدهم ما كان معه فقال « ومعي جراب دنانير ومن الخرثيّ والآلة وغير ذلك مالا أحتاج معه إلى أحد » وعند بعضهم « صنان ، كل صنّ بأربعة آذان »[2] . وقصاع كبيرة يذلّ عنها الطَرف ...[3] ومن أدواتهم الخوان والإبريق والطست والمناديل المطرّزة ، وقد ذكرت في المقامة المضيرية ، وكانوا يستنيرون بضوء السراج وهو « حوت مصرور في بعض البحور مخطّف الخصور يلدغ كالذنبور ويعتمّ بالنور ، أبوه حجر وأمه ذكر ، ورأسه ذهب واسمه لهب وباقيه ذنب ، له في الملبوس عمل السوس ، وهو في البيت آلة الزيت ، شرّيب لا ينقع ، أكول لا يشبع ، بذول لا يمنع ، ينمي إلى الصعود ، ولا ينقص ماله من جود ، يسوءك ما يسرّه وينفعك ما يضرّه ... »[4] أما المطبخ فلك أن تتخيّل ما لم يذكره من أدواته حين تدخله مع أبي الفتح لترى المرأة فيه وهي تدور من التنور إلى القدور ، تنفث بفيها النار وتدق بيديها الأبزار ... »[5] .

ومما كان معروفاً عندهم المغزل ، وقد عرفناه في بعض دورنا القديمة ، والأمشاط ، وقد ألغز فيها الهمذاني في المقامة المغزلية وأورد لكل من المغزل والمشط كثيراً من الأوصاف[6] .

وكذلك ذكر في المقامة الساسانية بعض أدواتهم في مثل قوله :

---

(١) المقامة القزوينية : ٩٤ .

(٢) المقامة الصيرية : ٢١٥ ـ ٢٢٢ والصن وعاء كبير يشبه السلّة .

(٣) المقامة المضيرية : ١٠٩ .

(٤) المقامة الابليسية : ١٩٣ .

(٥) المقامة المضيرية : ١١١ .

(٦) المقامة المغزلية : ١٧٤ .

أريـد مشطـاً ومبـوسى أريـد سطـلاً وليفـا[1]

الشطرنج : وهو من وسائل التسلية عندهم ، وقد كان معروفاً من قبل ، وعُدَّ الصولي والخليفة المأمون من المهرة فيه[2] . أما الهمذاني فقد ذكره حين أراد أن يصف يد أبي الفتح وجولانها بين الصحون فقال : إنها « تسافر على الخوان وتسفر بين الألوان وتأخذ وجوه الرغفان وتفقأ عيون الجفان » فهي « تجول في القصعة كالرّخ في الرقعة »[3] والرّخ من قطع الشطرنج ذو جولة وصولة وقوة ومنعة حتى سمّاه بعضهم بالقلعة . وورد اسم الشطرنج أيضاً في وصية الإسكندري لابنه حين كان يلقنه أصول التجارة فقال له : « كن مع الناس كلاعب الشطرنج ؛ خذ كل ما معهم واحفظ كل ما معك »[4] .

(١) المقامة الساسانية : ٩٨ .

(٢) الحضارة الاسلامية ٢ : ١٨٧ .

(٣) المقامة الجاحظية : ٧٩ .

(٤) المقامة الوصيّة : ٢١٤ .

٤ـ الكُدْيَة

الكـديـة مظهر من مظـاهر الفقر في المجتمع وعـدم التكافـل الاجتماعي بين النـاس . وربمـا تكون في بعض الأحيـان مظهراً من مظـاهر العجز أو الكسـل الفرديّ ، وهي قديمة في التاريخ ؛ وجدت منذ وجـد العجز والفقر إلى جـانب القوة والغنى مهما يختلف تأويل ذلك :

متى مـا ير النـاس الفقيرَ وجـارُه غني يقـولـوا : عـاجـز وجليـد !

الكدية في التاريخ : وقد كانت الكدية معروفة منذ القـديم ، كما يبـدو أنها كانت معروفـة عنـد العرب قبل الإسلام حتى نهى عنهـا الإسلام وحـاربَهـا النبي ﷺ وحض على العمل والكسب ، وشاعت أقواله في ذلك ، ومنهـا « لأن يأتي أحدكم الجبل فيأتي بحزمة من حطب فيبيعها خير له من أن يسـأل النـاس أعطـوه أو منعـوه » ومنهـا « اليـد العليـا خير من السفلى » ويرجـح أن تكثر الكـديـة وتنتشر حيث يعمّ الفقر ، وتقـل حيث يسـود الرخـاء . وقـد مرّ بنـا الحديث عن سوء الوضع الاقتصادي أيام الهمذاني ، وهو في مقاماته إنما يطلعنـا على سبل المكدين في حرفتهم ، ويكشف لنا أساليب خـداعهم ...بل إنـه يُعنى بالكدية عنـايـة خـاصـة حتى كانت المحور الأسـاسي الـذي تـدور حولـه معظم المقامات .

وليس ما نقله إلينا الهمذاني من أخبارهم ، على كثرتـه وطرافتـه ، غريبـا أو بعيداً عما عرف في ذلك العصر ؛ فلقد ذكروا أن بعض النـاس كانوا يحتـالون

للسلب بحيل شتى ، وأن من الحيل التي يلجأ إليها بعض المكدين لجمع المال تظاهرهم بالغزو والجهاد فيجمعون المال لتجهيز أنفسهم أو فك أسراهم !! وكثير من هؤلاء كانوا يركبون الدواب ويطوفون البلاد كالغزاة ليوهموا الناس بصدقهم ، بل إن في أخبار التاريخ أن جيشا من عشرين ألفاً خرج من خراسان سنة ٣٥٥ هـ بحجة الغزو ثم ظفر بأموال الدولة وانقلب إلى جيش للسلب والنهب[١] .

ولعل من أطرف ما وصف به المكدون وأساليبهم تلك القصيدة الطويلة الرائعة المعروفة بالقصيدة الساسانية والتي نظمها أبو دلف الخزرجي[٢] ومطلعها :

جفون دمعها يجري لطول الصدّ والهجرِ[٣]

وقد وصف فيها الغربة والتنقل ، وذكَر حِيل المكدين من كتابة التعاويذ والتآمر مع القصّاصين الذين يتصدَّرون حلقات القصص ويأمرون المستمعين بإعطاء الفقراء ثم يقاسمونهم ما جمعوا بعد انفضاض الحلقة ، كما ذكر كثيراً من أساليب المكر والخداع كتصفير الوجه أو تجريحه ، أو إيهام الناس بقطع اللسان ، أو ارتداء زي الرهبان أو الحجاج ، أو الاحتيال بالتنجيم أو باصطحاب عدد من الأطفال عليهم آثار الجوع والعري .. أو بترقيص القردة أو الدببة ... ، وهي قصيدة جامعة حتى إن آدم متز يقول : « إنها وثيقة اجتماعية عن القرن الرابع . »[٤] .

---

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ٦٦ .

(٢) هو مسعر بن مهلهل . انظر ترجمته وأخباره في يتيمة الدهر ٣ : ٣٥٦ (ط محي الدين عبد الحميد) .

(٣) انظر القصيدة في اليتيمة ٣ : ٣٠٨ .

(٤) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٠٧ .

الكدية في المقامات : أما الهمذاني فيحدثنا عن الكدية حديثاً طريفاً يبتكر له الأساليب ويعدّد المذاهب ، فلا يترك نوعا من الكدية إلا يأتينا بنموذج منه ويمثله لنا وكأنه أستاذ فيه .

ومما يجلب النظر في أساليب المكدين التي عرضها علينا أنها ليست غريبة عنا ولا عن عصرنا ، وأنها هي نفسها الأساليب المتبعة عند المكدين المعاصرين وكأنهم توارثوها جيلا عن جيل .

فمن المكدين من كان يجول في الأسواق رافعا صوته في الإنشاد :

ويلي على كفّين من سويق ... أو شحمة تضرب بالدقيق
أو قصعة تملأ من خرديق ... يفشأ عنا سطوات الريق
يقيمنا عن منهج الطريق ... يارازق الثروة بعد الضيق[1]

أو يستجدي قائلاً :

ياقوم قد أثقل دَيني ظهري ... وطالبتني طَلَّتي[2] بالمهر
أصبحت من بعد غنى ووفر ... ساكن قفر وحليف فقر
يا قوم هل بينكم من حرّ ... يعينني على صروف الدهر[3]

فإذا نال ما طلب من أحد المحسنين أتبعه بالدعاء والشكر :

يا من عناني بجميل برّه ... أفضى إلى الله بحسن سرّه
واستحفظ الله جميل ستره ... إن كان لا طاقة لي بشكره

---

(١) المقامة الأزاذية : ١٥ .
(٢) الطلّة : الزوجة .
(٣) المقامة المكفوفية : ٨٤ .

فالله ربي من وراء أجره[1]

ومن المكدين من يتظاهر بالمرض ويمثل دور المصاب المبتلى فيضمد ساقه أو يشدّ يده إلى عنقه أو يعصب رأسه أو يعمد إلى الارتجاف كلما شعر بدنوّ أحد المارّة منه .. ومنهم من كان يتظاهر بالعمى كالذي حدثنا عنه الهمذاني في المقامة المكفوفية فهو « أعمى مكفوف » ولكنه سرعان ما يعرف الدينار من لمسه مما جعل ابن هشام يشك في أمره ويقول « وتبعته فعلمت أنه متعامٍ لسرعة ما عرف الدينار ... ثم فتح عن توأمتي لوز[2] .. »

ومنهم من كان يكتب حاجته على أوراق يوزعها على الناس ، شأن بعضهم اليوم ، وقد رأى ابن هشام من هؤلاء في أسواق العراق وقال لأحدهم « ألم أرك بالعراق تطوف في الأسواق مكديا بالأوراق ؟[3] » .

وقد تكون للمستجدي طريقة أخرى في سؤاله الناس وذلك بأن يغتنم الفرصة السانحة ويأتي في الوقت الملائم ، وللنفس أحوال تحب أن تصنع فيها الخير كأن يكون الإنسان مقدماً على سفر فإذا هو قبل أن تتحرك مطيته أمام سائل يتضرع داعياً له بالأمن والسلامة على حين أنه منصرف إلى التفكير في أخطار الطريق ومشاقّ السفر .

وكثيراً ما نشاهد اليوم أمثال هذه الفئة من المكدين يقفون في المحطات أو مراكز انطلاق القطر والسيارات يتصيّدون المسافرين حافّين بهم داعين لهم بالأمن والسلامة ، ومن هؤلاء ذلك الذي حدثنا عنه ابن هشام في المقامة البلخية حيث قال : « ولّما حنى الفراق بنا قوسه أو كاد دخل عليّ شاب في زيّ

---

(١) المقامة الأزاذية : ١٦ .

(٢) المقامة المكفوفية : ٨٦ .

(٣) المقامة البلخية : ٢١ .

مـلأ العين .. ولقيني من البرّ في الثنـاء ، ثم قـال : أظعنـاً تريـد ؟ فقلت : اي والله . فقال : أخصب رائدك ولا ضلّ قائـدك . فـأين تريـد ؟ قلت : الوطن فقال : بُلّغت الوطن وقضيت الوطر .. ، قال : إذا أرجعك الله سـالمـاً من هـذا الطريق فاستصحب لي عدواً في بردة صـديق من نجـار الصفر يـدعو إلىالكفر ويرقص على الظفر ، كدارة العين يحطّ ثقل الدَّين وينافق بوجهين . قـال ابن هشام : فعلمت أنه يلتمس ديناراً فقلت : لك ذلك نقداً ومثله وعدا ... »[1]

ومن الأحوال التي يحبب فيها الخير إلى النفوس أن يكون الانسـان في جوّ ديني تسوده روح البـذل والتعـاون ، أو أن يكـون الإنسـان منصرفـاً إلى تـذكّر الآخرة والـزهـد في الـدنيـا ، راغبـاً في الأجر والثـواب ... فهـو في مثـل هـذه الأحوال أقرب إلى الاستجابة وأسرع إلى السخـاء ... وقـد عرف المكـدون ذلـك فرابطوا عند أبواب المساجد أو دخلوا على الناس في المساجد فوعظوهم وذكّروهم حتى امتلأت قلوبهم بحب الآخرة ونعيمها والزهد في الدنيا ومبـاهجهـا ثم عرضوا على الناس بؤسهم وفقرهم وطلبوا منهم عونهم ومساعـدتهم ؛ إنهم كثيراً مـا بـدأوا واعظين مذكّرين وانتهوا سائلين مستجدين !

والطريف أن بعض هـؤلاء المـاكرين لا يـدعـون مجـالاً يسمـح للمصلي بـالانصراف ، فهم يحرجون النـاس ويشـدّونهم بـأغلـظ الأيمـان لئلا يخرجوا من المسجـد قبل سماع الشكـوى ، وذلـك على نحـو مـا حـدث لابن هشـام في أحـد مساجد أصفهان حين فرغ الإمام من ركعتيه « وأقبل على التشهّد بلحييه ومال إلى التحية بـأخـدعيـه ، وقلت : قـد سهل الله المخرج وقرب الفرج . قـام رجل فقال : من كان منكم يحب الصحابة والجماعة فليعرني سمعه سـاعـة ! قـال عيسى بن هشام : فلزمت أرضي صيانة لعرضي . فقال : حقيق عليّ ألا أقول غير الحق

---

(١) المقامة البلخية : ١٨ .

ولا أشهد إلا بالصدق . قد جئتكم ببشارة من نبيكم لكني لاأؤديها حتى يطهّر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوّته . قال عيسى بن هشام : فربطني بالقيود وشدّني بالحبال السود .... »[1] وتابع خطابه حتى ملأ جرابه وانصرف .

ومن المكدين من يستجدي بحجة البيع ؛ يزعمون أنهم يبيعون الأحراز والأوراد وكتابات لها عمل السحر ! في تحبيب الأزواج بزوجاتهم أو إخراج الأفاعي من أوكارها ...

ومنهم من يزعم أنه اهتدى بعد ضلال ، وأن عطاء الناس له وتصدّقهم عليه يعصمه من العودة إلى ضلاله ، يقول واحد من هؤلاء « ... والآن لما أسفر صبح المشيب وعلتني أبهة الكبر عمدت لإصلاح أمر المعاد بإعداد الزاد فلم أر طريقاً أهدى إلى الرشاد مما أنا سالكه . » ثم يقول « ودُفعت إلى مكاره نذرت معها ألاّ أدّخر عن المسلمين منافعها ولا بدّ لي أن أخلع ربقة هذه الأمانة من عنقي إلى أعناقكم وأعرض دوائي هذا في أسواقكم فليشترِ مني من لا يتقزّز من موقف العبيد ولا يأنف من كلمة التوحيد .. »[2]

وقد يزيد في الخداع فيزعم أنه على أهبة الجهاد وأن الجود عليه إعانة له على الجهاد في سبيل الله فيقول :

أدعو الى الله فهل من مجيب ... إلى ذرا رحب ومرعى خصيب
وجنة عالية ما تني ... قطوفها دانية ما تغيب
إن أك آمنت فكم ليلة ... جحدت ربي وأتيت المريب
ثم هداني الله وانتاشني ... من ذلّة الكفر اجتهاد المصيب

---

(١) المقامة الأصفهانية : ٥٨ .

(٢) المقامة السجستانية : ٢٦ .

فظلت أخفي الـــدين في أسرتي وأعبـــــــد الله بقلب منيب[1]

يا قوم وطئت داركم بعزم لا العشق شاقه ولا الفقر ساقه ، وقد تركت وراء ظهري حدائق وأعنابا . وخرجت خروج الحية من جحره[2] والطائر من وكره مؤثراً ديني على دنياي .. فلو دفعتم النار بشرارها ورميتم الروم بحجارها وأعنتموني على غزوها مساعدةوإسعادا ومرافدة وإرفادا ، ولا شطط ؛ فكل على حسب قدرته وقدر طاقته ولا أستكثر البدرة وأقبل الذرَّة ولاأردّ التمرة ، ولكل مني سهمان : سهم أذلقه للقاء وسهم أفوقه بالدعاء ... »[3] ولا عجب في أن يزعم الجهاد والغزو لينال المال فقد رأينا جيشاً بكامله يزعم الغزو في سبيل النهب .

ومن المكدين من يطرق عليك الباب ليلاً ليزعم أنه ابن سبيل مقطوع قال ابن هشام « ولما اغتمض جفن الليل وطرّ شاربه قرع علينا الباب ، فقلنا : من القارع المنتاب ؟ فقال : وفد الليل وبريده ، وفلّ الجوع وطريده وحرّ قاده الضرّ والزمن المرّ ، وضيف وطؤه خفيف وضالّته رغيف ، وجار يستعدي على الجوع ....[4] » ومثله أيضاً ذلك الذي ذكره ابن هشام في المقامة الناجمية .[5]

ومن المكدين من يلجأ إلى استدرار عطف الناس باصطحاب أطفاله معه ، وهو لا يتحدث إليك عن فقره وجوعه لأن عطف الأبوّة أنساه ذلك ،

---

(١) المقامة القزوينية : ٩٢ .

(٢) الحية للمؤنث والذكر ويفرّقون بينها بالوصف .

(٣) المقامة القزوينية : ٩٤ .

(٤) المقامة الكوفية : ٣٠ .

(٥) المقامة الناجية : ١٩٩ .

وإنما يحدثك عن جوع أولاده وعريهم ، وأنت إن لم تتألم لذلّ الرجولة أو لوعة الأبوّة في شخصه فلا بدّ أن تتألم للطفولة الجائعة العارية في أطفاله ، إنه يكلمك بلسانه ويكلمونك بعيونهم ، فإن لم تتأثر بلهجته فلن تقوى على صدّ نظراتهم الزائغة الضارعة . ولقد عرف ذلك خبثاء المستجدين في عصرنا فراح بعضهم يستتبع أطفالاً يزعم أنهم بنوه وما هم ببنيه !

وقد ورد ذكر هذا النوع من المكدين غير مرة على لسان الهمذاني فهذا واحد « قد احتضن عياله وتأبط أطفاله[1] » وهذا آخر « يتلوه صغار في أطمار[2] » وربما قدّم المستجدي طفله ودفعه إلى الكلام فإن ذلك أدعى للشفقة وأنفذ في القلب ، وقد دفع بعضهم طفله إلى الكلام فقال : « ماعسى أن أقول وهذا الكلام لو لقي الشعر لحلقه أو الصخر لفلقه ، وإن قلباً لم يُنضجه ماقلت لنيء . وقد سمعتم ياقوم مالم تسمعوا قبل اليوم فليُشغل كل منكم بالجود يده وليذكر غده واقياً بي ولده . واذكروني أذكركم ، وأعطوني أشكركم[3] » .

ومنهم من يزعم أنه عزيز ذلّ وغنيّ افتقر ؛ « إنكم لن تأنسوا حادثاً ولن تعدموا وارثاً ، فبادروا الخير ما أمكن وأحسنوا مع الدهر ماأحسن ، فقد والله طعمنا السكباج وركبنا الهملاج[4] ولبسنا الديباج وافترشنا الحشايا فما راعنا إلا هبوب الدهر بغدره وانقلاب المجن لظهره فعاد الهملاج قطوفاً وانقلب الديباج صوفاً وهلمّ جراً إلى ما تشاهدون من حالي وزيّي[5] » .

---

(١) المقامة الأزاذية : ١٤ .

(٢) المقامة الجرجانية : ٥١ .

(٣) المقامة البُخارية : ٨٩ .

(٤) الهمْلاج من البراذين الحسن الانقياد .

(٥) المقامة البُخَارية : ٨٨ .

الكدية الجماعية : ومن الطريف أن بعض المكدين كانوا يؤلفون جماعات يستغنون بها عن الأطفال ويقدّمون واحداً منهم يسيرون وراءه ويقول الجملة فيعيدونها من خلفه .. ؛ والحق أننا نكاد لا نعرف هذا النوع من الكدية الجماعية اليوم . إذ نحن نعرف تلازم سائلين مستجديين أحدهما أعمى مثلاً أو مقعد ، أو تلازم رجل وزوجته ، أو تلازم أسرة بكاملها . أما الكدية الجماعية فقد وصفها لنا الهمذاني في المقامة الساسانية فقال : « فبينا أنا على باب داري إذ طلع علي من بني ساسان كتيبة قد لفّوا رؤوسهم ، وطلوا بالمغرة لبوسهم ، وتأبط كل واحد منهم حجراً يدق به صدره ، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه ، ويدعو ويجاوبونه ..[1] » .

وهكذا استعرض لنا الهمذاني أنواع الكدية وأساليب المكدين ، وقدّم لنا صوراً مختلفة عن تلك الطبقة الفقيرة التي كانت تحتال للقوت ، والتي كانت في عددها متناسبة مع ما ذكر من فساد الحال وسوء الوضع في تلك الفترة ، وهي فترة قيل إنه ما مرَّ على الدولة أسوأ منها ، وحسبنا منها أنها بيعت فيها الدور والعقارات بما يمسك الرمق من الخبز .

(١) المقامة الساسانية : ٩٧ .

٥ـ قلة الأمن وكثرة اللّصوص

السياسة والأمن :رأينا أن الأحوال السياسية لذلك العصر كانت مضطربة وأن أوضاع الحكم فيه كانت غير مستقرة ، ولا شك أن ذلك يؤدي في أغلب الأحيان إلى فقدان الأمن وكثرة الجرائم ، ونحن لا نزال إلى اليوم نشاهد الأمثلة الكثيرة على ذلك ، إذ لا تلبث أن ترتبك سياسة البلاد وتتزلزل أوضاع الحكم حتى تنشط الجريمة ويكثر الفساد ... وما يزال الأمر كذلك حتى يعود الأمر إلى نصابه وتتولى زمام الحكم يد قوية تعرف كيف تضرب على يد البغي والفساد ..

في التاريخ : وكان طبيعيا أن تكثر الجرائم وحوادث النهب في تلك الفترة التي اضطربت فيها شؤون البلاد وأصبحت المناصب الكبرى نهباً موزعاً بين الأقوياء ، لقد كان بين الناس لصوص يسطون على القوافل في الطرقات وعلى البيوت والمخازن في المدن ، كما كان بين السياسيين والحكام لصوص يسطون على المناصب وينهبون الوظائف ، والناس على دين ملوكهم ، وإذا كان عمران بن شاهين يغتصب السلطة في أرض البطيحة ويستقل بها أيام معز الدولة ، فقد كان معز الدولة نفسه مغتصباً للسلطة مستأثراً بها . ومما يدل على مبلغ الاضطراب وفقدان الأمن ذلك التعرّض الوقح لقوافل الحجاج والتجار حتى بات الحاج لا يأمن على حياته « لقد كان الحج في تلك العصور بسبب ما كان في الطرق العربية من المخافات وقلة الأمن غير ممكن أو معرّضاً صاحبه للموت

أحيـانـاً أخرى[1] » وفي كتب التـاريخ أن الحج تعطل غير مرة نتيجـة لمـا حلّ بقوافل الحجاج من قتل ونهب .

وليس خبر الجيش الذي زعم الغزو وقام بالسلب ببعيد عنـا ، وقـد ذكروا عن جنوده « المجـاهـدين » أنهم كانـوا يخرجـون ليـلاً ومعهم آلاتهم من السيـوف والحراب والقسيّ والسهـام ويزعمـون أنهم يـأمرون بـالمعروف فيسلبـون العـامـة منـاديلهم وعمـائمهم وإذا تمكنوا من تفتيشهم وأخـذ جميع مـا معهم لم يقصّروا في ذلك[2] .

وحسبنـا أن نقـول إن العراق لم يتمتـع بـالأمن قـط في أثنـاء القرن الرابـع الهجري[3] وهو مركز الدولة وفيه قوّتها ، فما بالـك بـالمنـاطق والأقـاليم النـائيـة عنه وعن مركز السلطان ؟

في المقـامـات : يخصّ الهمـذاني هـؤلاء اللصـوص بنصيب من مقـامـاتـه ويـذكر أنـواعـا منهم متعـددة ؛ فيحـدثنـا عمن يتعرض منهم للمسـافرين في الطرقـات كـذلـك الـذي خرج على ابن هشـام وصحبـه في طريـق حمص « ثم اندمج بهم وخـدمهم وعمـد إلى قوس أحـدنـا فـأوتره وفوّق سهماً فرمـاه في السماء وأتبعه بآخر فشقه في الهواء . وقـال : سـأريكم نوعـاً آخر ، ثم عمـد إلى كنـانتي فأخذها ، وإلى فرسي فعلاه ورمى أحدنـا بسهم أثبتـه في صـدره ، وآخر طيّره من ظهره . فقلت ويحك ما تصنع ؟ قال : اسكت يا لكع ، والله ليشـدنّ كل منكم يد رفيقه أو لأغصنّه بريقـه ...[4] » ثم نزع عنهم ثيـابهم وكاد يـذهب بهـا

---

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ٥٩ .

(٢) الحضارة الإسلامية : ٦٦ .

(٣) المرجع السابق : ٢٩٤ .

(٤) المقامة الأسدية : ٣٧ .

لولا أن عاجله بعضهم بطعنة قضت عليه ، ومثله الذي خرج على ابن هشام وصاحبه الاسكندري وهما عائدان من الموصل « فملك عليهما القافلة وأخذ منهما الرحل والراحلة ...[1] » .

وأما اللصوص الذين يسطون على البيوت والمحال التجارية ، والنشالون الذين يسرقون من الناس في الطرقات فقد تحدث الهمذاني عنهم طويلاً في المقامة الرصافية حيث قال على لسان ابن هشام : « خرجت من الرصافة أريد دار الخلافة وحمارّة القيظ تغلي بنار الغيظ ، فلما نصفت الطريق اشتد الحرّ وأعوزني الصبر ، فملت إلى مسجد قد أخذ من كل حسن سرّه وفيه قوم يتأملون سقوفه ويتذاكرون وقوفه ، وأداهم عجز الحديث إلى ذكر اللصوص وحيلهم والطرّارين وعملهم ...[2] » ثم يتابع ذكر أسمائهم وتعداد أنواعهم حتى زاد على السبعين نوعاً ، مما جعل هذه المقامة مصدراً « دسماً » للصوص و (النشالين) أو لمن يريد أن يعرف شرّهم ويدفع عنه أذاهم ، كما جعلها ، من ناحية ثانية ، صورة من صور الأخلاق الفاسدة والبؤس المنتشر ...

---

(١) المقامة الموصلية :١٠٣ .

(٢) المقامة الرصافية : ١٦٥ . والطّرارون : الذين يختلسون المال بخفّة وخفاء (النشّالون) .

٦ـ خَصائصهم وعاداتهم

السذاجة ـ بين الأصدقاء ـ التقليد

لكل قوم من الأقوام خصائصهم وعاداتهم ، فمنهم من يتصف بالخشونة والصلابة ، ومنهم من يتميز باللين والرقة ... ويتجلى الكثير من هذه الخصائص والعادات في أعمال الناس وتصرفاتهم ، وهي إنما جاءت مبعثرة في المقامات ولكننا نستطيع على كل حال أن نرى من خلالها بعض الصفات التي طبعت شخصيات الناس في تلك الفترة وأن نستنتج الكثير من خصائصهم .

السذاجة وسرعة التصديق : مرّ بنا في الحديث عن الوعظ والوعاظ كيف كان بعضهم يخدعون الناس فينخدعون ، ومرّ بنا في الحديث عن الكدية والمكدين كيف كانت الحيلة البسيطة تنطلي عليهم ، مما يعطي فكرة عن سذاجتهم وسرعة تصديقهم ، والحق أن بديع الزمان قد رسم لنا من سذاجة الطبقة العامة في مجتمعه صورة رائعة نراها ماثلة أمامنا ، وكأنها من صور عامتنا نحن في عصرنا الحاضر . إنه يبيّن لنا كيف يخدعهم صاحب الأحراز إذ يزعم لهم أنها تنجي من الغرق ، فسرعان ما ينخدعون ويصدّقونه ... ويبيّن لنا كيف يخدعهم مستجد يتعامى فينخدعون ويصدّقون ..

لقد كان بعض العامة من القوم سذجاً إلى حدّ يسهل معه أن تخدعهم أبسط المظاهر ، فكانت تخدعهم الدمعة في العين ، والكلمة على اللسان ،

والزراية في الملبس ، بل إنهم كانوا يخدعون بما هو دون ذلك وأبسط منه ! إن بعضهم يكفي أن تسلّم عليه ليكون فريسة سهلة ولقمة سائغة كذلك الذي سلّم عليه عيسى ابن هشام باسم أبي زيد وهو أبو عبيد في المقامة البغدادية المشهورة . نعم إن في هذه المقامة خبث الماكر ومكر الخبيث ولكن فيها صورة رائعة للسذاجة البلهاء والطوية النقيّة والرجل الطفل .. وأيّ سذاجة أو طفولة أوضح من الدموع يذرفها الرجل معترفاً أنه كان ضحية المكر والخداع ، داعياً خصمه إلى الشماتة فيه والسخرية منه ، وتاركاً للناظرين أن يضحكوا منه ... إنها صورة السوادي حين همّ بالخروج من المطعم فاعترض الشوّاء طريقه ؛ ووصف الهمذاني ما كان بينهما فقال : « قام السواديّ إلى حماره فاعتلق الشوّاء بإزاره ، وقال : أين ثمن ما أكلت ؟ فقال ـ وبكل بساطة وما زالت الحيلة منطلية عليه حتى هذه اللحظة !! ـ : أكلته ضيفاً ! فلكمه لكمة ، وثنى عليه بلطمة . ثم قال الشواء : هاك ومتى دعوناك ؟ زن يا أخا القحة عشرين ، فجعل السوادي يبكي ويحلّ عقده بأسنانه ويقول : كم قلت لذاك القريد أنا أبو عبيد ، وهو يقول : أنت أبو زيد ..[1]

وأطرف من ذلك أن أبا الفتح الاسكندري يخدع الناس بشكل يدعو إلى الضحك لما يبدو من سذاجة القوم وسرعة تصديقهم لكل غريب ! إنه زعم لهم أن باستطاعته نشر الميت وإعادة الحياة إليه ، فآمنوا به وصدّقوه وسلموا الميت له ، وظلت حياته منطلية عليهم ثلاثة أيام حتى كشفها لهم هو بنفسه ؛ قال ابن هشام « ودخل الدار ينظر إلى الميت وقد شدّت عصابته لينقل ، وسخن ماؤه ليغسل ... فلما رآه الاسكندري أخذ حلقه وجسّ عرقه فقال : يا قوم

---

(١) المقامة البغدادية : ٦٦ .

اتقوا الله لا تدفنوه فهو حيّ ! فجعلوا أيديهم في إبطه فقالوا : الأمر على ما ذكر فافعلوا كما أمر . وقام الاسكندري إلى الميت فنزع ثيابه ثم شدّ له العمائم وعلّق عليه تمائم ، وألعقه الزيت وأخلى له البيت ، وقال : دعوه ولا تروّعوه ، وإن سمعتم له أنيناً فلا تجيبوه[1] .. وصدّق القوم الخبر وتدفقت عطاياهم على أبي الفتح الذي « خرج من عنده وقد شاع الخبر وانتشر إن الميت قد نشر ، وأخذتنا المبارّ ، من كل دار وانثالت علينا الهدايا من كل جار ، حتى ورم كيسنا فضة وتبرا ، وامتلأ رحلنا أقطاً وتمرا ...[2] ويحلّ موعد البعث ويبقى الميت ميتاً ويكشف أبو الفتح حقيقة الأمر إذ جاء .. فحدر التمائم عن يده ، وحلّ العمائم عن جسده ، وقال : أنيموه على وجهه فأنيم ، ثم قال : أقيموه على رجليه فأقيم ، ثم قال خلّوا عن يديه ، فسقط رأساً ، وطنّ الاسكندري بفيه وقال : هو ميت كيف أحييه ؟؟[3] .

وإذا خدع هؤلاء وهم متأثرون بحبهم للميت ورغبتهم في عودته وعدم تصديقهم لوفاته ، فإن هناك آخرين كانوا أكثر سذاجة وبلاهة حين فاجأهم السيل فظنوا ـ كما أوهمهم الاسكندري ـ أن البقرة الصفراء والكاعب العذراء ترد عنهم أذى الفناء ، وقد قصّ علينا ابن هشام قصتهم فقال : « أتينا قرية على شفير واد ، السيل يطرّفها والماء يتحيّفها ، وأهلها مغتّمون لا يملكهم غمض الليل من خشية السيل . فقال الاسكندري : يا قوم أنا أكفيكم هذا الماء ومعرّته وأردّ عن هذه القرية مضرّته ، فأطيعوني ولا تبرموا أمراً دوني . قالوا: وما أمرك ؟ فقال : اذبحوا في مجرى هذا الماء بقرة صفراء وائتوني بجارية عذراء وصلّوا خلفي ركعتين يثنِ الله عنكم عنان هذا الماء إلى هذه الصحراء ... قالوا :

(١ و ٢ و ٣) المقامة الموصلية : ١٠٤ وما بعدها .

نفعل ذلك ، فذبحوا البقرة وزوجوه الجارية وقام إلى الركعتين يصليها[1] .. » ثم فرّ هو وصاحبه والقوم سجود !

ولن نذكر شيئاً مما كان يلجأ إليه المكدون أو اللصوص فقد سبقت الإشارة إليه وحسبنا ما ذكرنا دليلاً على السذاجة وسرعة التصديق التي يتصف بها معظم الطبقة العامة في كل مكان .

في أحزانهم : وغضي لنطلع على بعض عادات القوم عامة وما يتصل منها بعقليتهم وتفكيرهم خاصة ، لأنه يفسح أمامنا المجال إلى معرفة التشابه بين عاداتهم وعاداتنا وعقليتهم وعقليتنا ، من ذلك ما كان يحدث عندهم في المآتم والأحزان مما يشابه كثيراً ما يحدث اليوم في مآتمنا وأحزاننا . فلقد كان من عادتهم مثلاً تنظيف البيت بعد ترحيل الميت وكنسه ورشّه كما يفعل عامة الناس اليوم ، وقد أشار الهمذاني إلى ذلك حين قال « نُبذت خلفه الحصيّات وكنست بعده العرصات[2] . »

بل إننا لنرى في مآتمهم مشاهد مما نرى في مآتمنا ، ولنسر خلف الهمذاني « إلى دار قد مات صاحبها وقامت نوادبها واحتفلت بقوم قد كوى الجزع قلوبهم وشقّت الفجيعة جيوبهم ، ونساء قد نثرن شعورهن يضربن صدورهن ، وجددن عقودهن يلطمن خدودهن[3] ... »

ويبدو أن تلك كانت عادة القوم عامة مما دعا بديع الزمان وهو الحريص على السنّة إلى النهي عنها والنصّ على تجنبها في وصيّته فقال : « أوصى إذا

---

(١) المقامة الموصلية : ١٠٦ .

(٢) المقامة الكوفية : ٣١ .

(٣) المقامة الموصلية : ١٠٣ .

جاءه الحق وأشخصه الأمر وجدّ به الجدّ وتوفّاه الموت ألاّ تعقد عليه مناحة ولا يلطم خد ولا يخمش وجه ولا ينثر شعر ولا يمزق ثوب ولا يشق جيب ولا يهال نقع ولا يرفع صوت ولا يُدعى ويل ، ولا يسوّد باب ولا يخرق متاع[1] .. »

التقليد في التاريخ : كان انتشار التقليد فيما بين الناس أمراً طبيعياً فهو غدوى سريعة الانتشار في كل مجتمع ، ولقد كان بعض الناس يتخذونه وسيلة للإضحاك والكسب ومنادمة الملوك ، وفي أخبار « مروج الذهب » أنه كان هناك مقلّدون ماهرون وكان الواحد منهم يسمى الحاكية ، وكان التقليد والمحاكاة فنّين جديرين بالعناية . وذكروا أنه كان في بغداد رجل يعرف بابن المغازلي يقف على الطريق ويقص على الناس فلا يدع حكاية أعرابي أو نجدي أو نبطي أو زطي أو زنجي أو سندي أو تركي أو خادم إلا حكاها ... وفي القرن الرابع الهجري كان أبو الورد من عجائب الدنيا في المطايبة والمحاكاة[2] ..

في المقامات : ولقد كانت المقامات عامة مسرحاً للتقليد إذ نجد أبا الفتح يتقمص في كل منها شخصية من الشخصيات يقلّدها ويقوم بكل أدوارها ؛ فهو تارة واعظ تقيّ ، وتارة شحّاد ، وتارة تاجر ، وتارة مجنون .. ، وهو متقن في كل تلك الحالات حتى ليخدعك عن نفسه بل يخدع صديقه وأقرب الناس إليه .

إنه في المقامة الوعظية رجل مهيب الشكل أشيب الشعر ينطق بالحكمة ، ينطلي أمره حتى على صديقه ابن هشام فيسأله عن شخصه . وهو في المقامة الوصيّة تاجر حريص يعرف كيف يكتسب المال ويريد أن يحذو ابنه حذوه

---

(١) كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان : ٥٣٦ .

(٢) انظر الحضارة الإسلامية ٢ : ١٩٣ .

وأن ينشأ مبرّأ من داء « الكرم » : يـا بني لست آمن عليـك النفس وسلطـانهـا والشهوة وشيطـانهـا ، فـاستعن عليها نهـارك بـالصوم وليلـك بـالنوم . ولا آمن عليك لصّين أحدهمـا الكرم واسم الآخر القَرَم ، فـإيـاك وإيـاهمـا ، فـإن الكرم أسرع في المال من السوس ، وإن القرم أشأم من البسوس ، ودعني من قولهم إن الله كريم، إنهـــا خـــدعـــة الصبيّ عن اللبن ، بلى إن الله كريم ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه وينفعنا ولا يضرّه ومن كانت هذه حالـه فلتكرم خصـالـه ، فـأمـا كرم لايزيـدك حتى ينقصني ولا يريشـك حتى يبريني فخـذلان لأقـول عبقري بل بقريّ ... أفهمتها يا ابن المشؤومة ![1] »

ويمثّل دور الشحّاذ الأعمى ، فيخدع الناس بما يتقن من تمثيل العمى حتى يستـدرّ عطفهم وشفقتهم ، كما يمثل دور عـالم مختـلّ يهـذي فيتقن مـا يمثـل[2] ، ويمثّل دور القاضي التقي ، ودور الرجل الماجن ، بل هـاهو ذا في أحـد شوارع بغـداد في « حلقـة رجـال مـزدحمين يلـوي الطرب أعنـاقهم ويشـق الضحـك أشداقهم ، فساقني الحرص إلى ما ساقهم ، فـإذا هو قرّاد يرقص قرده ويُضحـك من عنـده ... فلمـا فرغ القراد من شغلـه وانتفض المجلس عن أهلـه ، قمت وقـد كسـاني الـدهش حلّتـه ووقفت لأرى صـورتـه ، فـإذا هـو والله أبـو الفتـح الاسكندري ![3] » ولا عجب أن يتقن أبو الفتح التقليد فلطـالمـا مـارسـه ونوّع أدواره وهو يقول :

أنـــا أبـو قلمـــون في كل لون أكون..[4]

---

(١) المقامة الوعظية : ١٤٣ .

(٢) المقامة الحلوانية : ١٨٣ .

(٣) المقامة القردية : ١٠١ .

(٤) المقامة المكفوفة : ٨٦ .

كثرة الأسفار : ومما ذكر عن نشاط القوم في القرن الرابع اتساع تجارتهم ، وأنهم كانوا يجوبون الآفاق ويكثرون من الأسفار . وفي كتب التاريخ التي تحدثت عن التجارة في ذلك العصر خير دليل على ذلك النشاط . وقد أشار الهمذاني إلى عادة الناس هذه وحبّهم للأسفار فذكر أن بعضهم كان يخرج « يسيح كأنه المسيح فجال خراسان ، الخراب منها والعمران ، إلى كرمان وسجستان وجيلان إلى طبرستان وإلى عمان ، إلى السند والهند والنوبة والقبط واليمن والحجاز ومكة والطائف[1] ... ونقل قول آخر فقال « وسرَتْ بي الخيل وسلكت في هربي مسالك لم يُرضها السير ولا اهتدت إليها الطير[2] .. » ومثله من اتهم بمال أصابه فقال « فهمت على وجهي هارباً حتى أتيت البادية .. » ومنهم من يجول حتى يشتهي الأوبة « كالذي بلغت به الغربة باب الأبواب ورضي من الغنيمة بالإياب[3] . » ونجد في المقامات كثيراً من أسماء المدن والبلاد يتنقل بينها أبطال القصص وأصحاب الأخبار ...

تربية الحمام : وكانت عادة تربية الحمام معروفة عندهم ولكنها ـ كما هي عندنا ـ مهنة وضيعة في نظر القوم ، وإنما كان يحترفها الخصيان فكان « من صفاتهم التي يختصون بها ولوعهم بالعبث واللعب بالطير والفخ ، وهم أكثر من يرتاد سوق الطيور[4] ... » ثم تغيَّرت الحال وارتقت المهنة حتى عني بتربية الحمام بعض الحكام والأغنياء وخصوصاً بعد أن شاعت عادة السباق بالحمام وسائر أنواع الحيوانات ... وكانوا يحارشون بين الكباش والديوك والكلاب « ويحكى

---

(١) المقامة الصيرية : ٢٢٠ .

(٢) المقامة الأذربيجانية : ٤٨ .

(٣) المقامة الحرزية : ١٤٤ .

(٤) الحضارة الإسلامية ٢ : ١١٦ .

عن الخليفة المعز أنه سابق بحمامه حمام الوزير أبي الفرج يعقوب فسبق حمامه حمامَ الخليفة فعظم ذلك على المعز[1] ...

وقد أشار الهمذاني إلى أن بعض اللصوص اتخذ الحمام فكان يرسله إلى البيوت ويلحق به فينال ما وصلت إليه يده من متاع البيت ، فإن فطن إليه أحد من أصحاب الدار زعم أنه لاحق بطيره ليضمّه إليه[2] .

صلابة الأصفهانيين في الدين : ولم يغفل الهمذاني ذكر ما يتصل بالأخلاق والطباع من عادات أهل عصره ، وإن كان حديثه موجزاً تارة ومفصلاً تارة أخرى ؛ وكان من حديثه الموجز ما أشار به إلى خشونة الأصفهانيين وصلابتهم في الدين ؛ وذلك حين همّ بقطع الصلاة ليلحق بالقافلة .. قال « وتقدم الإمام إلى المحراب فقرأ فاتحة الكتاب بقراءة حمزة مدة وهمزة ، وبي الغم المقيم المقعد من فوت القافلة والبعد عن الراحلة ، وأتبع الفاتحة الواقعة ، وأنا أتصلى نار الصبر وأتصلب وأتقلّى على جمر الغيظ وأتقلب وليس إلا السكوت والصبر أو الكلام والقبر ، لما عرفت من خشونة القوم في ذلك المقام[3] ... »

بين الأصدقاء : وكان حديثه مفصلاً حين ذكر لنا بعض ما يقع بين الأصدقاء ، وكيف يحتال الرفاق بعضهم على بعض مما نرى الكثير من أمثاله بين الأصدقاء اليوم ، فكم من زمرة من الرفاق اجتمعوا في دار واحد منهم وعزموا على ألا يخرجوا قبل تناول العشاء وتحقق ما أرادوا ، ولكن العشاء كان

---

(١) الحضارة الإسلامية : ١٨٩ .

(٢) المقامة الرصافية : ١٦٨ .

(٣) المقامة الأصفهانية : ٥٧ .

مجموعاً من دورهم دون علمهم .. ! أو كان مشترًى بثمن أحذيتهم التي باعها خادم صاحب الدار واشترى لهم الطعام بثمنها ...

ومن القصص الجميلة المتصلة بالأخلاق ومكايد الأصدقاء ما نقله لنا عن محمد بن إسحاق المعروف بأبي العنبس الصيمري إذ قال « إن مما نزل بي من إخواني الذين اصطفيتهم وانتخبتهم وادخرتهم للشدائد ما فيه عظة وعبرة وأدب لمن اعتبر واتعظ وتأدب .. » ويذكر بعد ذلك أنه كان غنياً جواداً فأحاطه رفاقه بالتجلة والتعظيم ، وأداموا وصله فما كان ينقطع عن مجلسه منهم أحد ، وكان في نظرهم « أعقل من عبد الله بن عباس ، وأظرف من أبي نواس ، وأسخى من حاتم ، وأشجع من عمرو ، وأبلغ من سحبان وائل ، وأدهى من قصير وأشعر من جرير ، وأعذب من ماء الفرات وأطيب من العافية ... » كل ذلك لبذله ومروءته وإتلافه لذخيرته ... ثم تتغير الأيام وتميل عنه النعمة فإذا هو وقد « خفَّ المتاع وانحطَّ الشراع وفرغ الجراب فتبادر القوم الباب » لأنهم يبغون المال لاصاحبه ، فانفضوا لما أحسّوا بالقصة وصارت في قلوبهم غصة ، ويقول : « ودعوني برصة ، وانبعثوا للفرار كرمية الشرار ، وأخذتهم الضجرة فانسلّوا قطرة قطرة ، وتفرّقوا يمنة ويسرة وبقيت على الآجرّة قد أورثوني الحسرة واشتملت منهم على العبرة لا أساوي بعرة ، وحيداً فريداً ، كالبوم الموسوم بالشوم أقع وأقوم كأن الذي كنت فيه لم يكن » !! ولكنه لم ييأس وإن رفضه الندماء والإخوان القدماء ، وإنما ينشط للعمل ويطوف البلاد ، ويسعفه الجدّ فيعود من أهل اليسار ويكثر لديه المال ويعود إليه المنافقون . يقول : « فلما قدمت بغداد ووجد القوم خبري وما رزقته في سفري سرّوا بمقدمي وصاروا بأجمعهم إليَّ يشكون ما عندهم من الوحشة لفقدي وما نالهم لبعدي ، وشكوا شدة الشوق ورزء التَّوق ، وجعل كل واحد منهم يعتذر مما

فعل ويظهر الندم على ما صنع ، فأوهمتهم أني قد صفحت عنهم ولم أظهر لهم أثر الموجدة عليهم بما تقدَّم ، فطابت نفوسهم وسكنت جوارحهم .. » وهنا يكون الشرك قد نصب والأمر قد دبر ، فبينما كانوا ذات ليلة عند أبي العنبس كعادتهم يأكلون ويشربون إذا هو ، وقد أراد بهم ما أراد ، يشربهم حتى يسكرهم ويفقدهم الوعي « فما مضت ساعة إلا وهم من السكر أموات لا يعقلون ، ووافانا غلمانهم عند الغروب كل واحد منهم بدابة أو حمار أو بغلة ، فعرّفتهم أنهم عندي الليلة بائتون فانصرفوا ، ووجهت إلى بلال المزيّن فأحضرته ، وقدّمت إليه طعاماً وسقيته من الشراب القطربّلي فشرب حتى ثمل وجعلت في فيه دينارين أحمرين وقلت : شأنك والقوم ، فحلق في ساعة واحدة خمس عشرة لحية ، فصار القوم جُرداً مُرداً كأهل الجنة ، وجعلت لحية كل واحد منهم مصرورة في ثوبه ومعه رقعة مكتوب فيها : من أضمر لصديقه الغدر وترك الوفاء كان هذا مكافاته والجزاء ، وجعلتها في جيبه وشددناهم في الصّنان ووافى الحمّالون عشاء الآخرة فحملوهم بكَرَّة خاسرة فحصلوا في منازلهم ، فلما أصبحوا رأوا في نفوسهم همّاً عظيماً لا يخرج منهم تاجر إلى دكانه ولا كاتب إلى ديوانه ولا يظهر لإخوانه ... »[1] .

وهكذا انتقم منهم وأطاح بلحاهم فحرمهم من الظهور أمام الناس في عصر يعظم أهله اللّحى .

أما نحن فقد رأينا من خلال القصة صورة من أخلاق النّاس الفاسدة إذ يقبلون على من تقبل عليه الدنيا ويدبرون عمن تدبر عنه .

ومما يتصل بأخلاقهم ما وصف به الهمذاني بعض قضاتهم ، فقال على لسان

---

(١) المقامة الصيرية : ٢١٥ .

بعض المصلّين : « هذا سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام ، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولصّ لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكرديّ لايغير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود . وقد لبس دنيّته وخلع دينيّته ، وسوّى طيلسانه وحرّف يده ولسانه ، وقصّر سباله وأطال حباله ، وأبدى شقاشقه وغطّى مخارقه ، وبيّض لحيته وسوّد صحيفته ، وأظهر ورعه وستر طمعه ... »[1] .

وكذلك ما حكاه في المقامة الخمرية عن شيخ كان يظهر النسك في النهار ويعاقر الخمرة في الليل[2] .

وحسبنا في الحديث عن أخلاق القوم أن موضوعات المقامات استقيت من المجتمع وطباع أهله ، وأنها كانت إلى حد بعيد صورة لبعض أفراد ذلك المجتمع الذي ساءت فيه أوضاع الحكم وكثر فيه الفقر والعوز فلم يكن أمام الناس بد من كسب القوت عن أي طريق .

(١) المقامة النيسابورية : ٢٠٧ .

(٢) المقامة الخمرية : ٢٤٤ .

٧ـ مناصب الدولة وأخبار الملوك

من وظائفهم : حدثنا التاريخ عن نشأة الدواوين في البلاد الإسلامية وعن تنوّعها وتفرّعها واختصاص كل منها ، ويأبى الهمذاني إلا أن يشارك في هذا الحديث ولو على سبيل التعداد فيقول « حدثنا عيسى بن هشام قال : وليت بعض الولايات من بلاد الشام ، ووردها سعد بن بدر أخو فزارة وقد ولي الوزارة ، وأحمد بن الوليد على عمل البريد ، وخلف بن سالم على عمل المظالم ، وبعض بني ثوابة وقد ولي الكتابة ، وجعل عمل الزمام إلى رجل من أهل الشام[١] .

من عادات الملوك : ويحدثنا كذلك عن الملوك والوزراء وكيف كانوا يجودون بالأعطيات والهبات ، فهذا سيف الدولة يهب الفرس لمن يحسن وصفه ، قال ابن هشام : « حضرنا مجلس سيف الدولة بن حمدان يوماً وقد عرض عليه فرس متى ما تَرَقَّ العينُ فيه تَسهَّلِ ، فلحظته الجماعة ، وقال سيف الدولة : أيكم أحسن صفته جعلته صلتَه[٢]... » وهذا الأمير خلف والي سجستان يعدّه أبو الفتح أكرم الناس على ما جاء في المقامة الملوكية إذ سأل أبو الفتح عيسى بن هشام عن أكرم الملوك ، قال ابن هشام : « فذكرت ملوك الشام ومن بها من الكرام ، وملوك العراق ومن بها من الأشراف وأمراء

---

(١) المقامة التميمية : ٢٤١ .

(٢) المقامة الحمدانية : ١٥٨ .

الأطراف ، وسقت الذكر إلى ملوك مصر فرويت ما رأيت ، وحدّثته بعوارف ملوك اليمن ولطائف ملوك الطائف ، وختمت مدح الجملة بذكر سيف الدولة ... »[1] فإذا هو بالاسكندري يقول شعراً يفضل فيه خلفاً على الجميع ، ومنه قوله :

من أبصر الدر لم يعدل به حجرا ومن رأى خَلفاً لم يذكر البشرا

وخلف هذا يرد اسمه ثانية في المقامة الناجمية حين دُعي أبو الفتح ليبقى عند جماعة من أهل الفضل فقال : « ما أختار عليكم صحباً ولقد وجدت فناءكم رحباً ، ولكن أمطاركم ماء والماء لا يروي العطاش ، قلنا : فأي الأمطار يرويك ؟ قال : مطر خَلَفي [2] ...

وقد رأينا أن الهمذاني زاد في مقاماته ست مقامات خصّها بمديح خلف بن أحمد حين نزل عنده[3] .

على أنه لابدّ لنا من الإشارة هنا إلى أن هذه الأخبار الهمذانية لا تتصف بالصدق أو الواقعية بل هي في كثير من الأحيان بنات الخيال الخصب ... إنه مثلاً لم يعاصر سيف الدولة إذ ولد هو سنة ٣٥٨ هـ ـ على حين مات سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ ـ ومع ذلك فقد أحضر عيسى بن هشام مجلسه وأسمعه حديثه ! ولكن هذا لا يطعن في مقاماته ، فهو لم يكتبها مؤرخاً وليس من غرضها وصف الواقع بأمانة وصدق ، وحسبه أنه كان يستلهم الواقع ثم يصوره بالصور الأدبية التي اختارها له ..

---

(١) المقامة الملوكية : ٢٣٥ .

(٢) المقامة الناجمية : ٢٠٢ .

(٣) انظر ما سبق في ص ١٩ من هذا البحث .

الخاتمة

حول وضوح الصورة وصدقها

لسنا نستطيع أن نزعم أن هذه الصورة التي قدمتها لنا المقامات عن المجتمع الإسلامي في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة كانت صورة واضحة أو صادقة .

أما عدم الوضوح فلأنها أهملت الكثير من جوانب الحياة ؛ فهي مثلاً لم تتعرض للمرأة مع أن المرأة كانت في ذلك العصر قد دخلت حياة المجتمع وتغلغلت فيها ، وكانت لها آثارها في الدولة وأمورها ، وفي الحياة ورفاهيتها ولهوها ... إنه ليس في المقامات ذكر للمرأة إلا ما جاء في المقامة الخمرية عن صاحبة الحانة . وهذا نقص لا تكمل الصورة معه .

ولم تتعرض المقامات كذلك لما كان يسود الحياة من حرية أو عبودية ، وما كان في حياة الحكام وتصرّفات الملوك من عدل أو استبداد ، مع أن هذا كان ممكناً في كثير من المواضع التي دارت الأحاديث فيها على لسان الوعّاظ .

على أننا لن نعمد إلى تعداد ما أنقصه الهمذاني ولكنا أردنا أن ننبه على أنه مازال ينقصنا الكثير من جوانب الحياة حتى تكمل الصورة وتتضح .

وأما عدم الصدق في هذه الصورة فأمر لا مجال للبحث فيه ، إذ أن المقامات لم تكتب أصلاً لوصف واقع أو تأريخ عصر ، وليس يهمها أن تتصل بالصدق من بعيد أو قريب ، كل ما يهمها إنما هو المتعة في الموضوع ، وإظهار البراعة اللغوية في الأسلوب ، وقد حققت ذلك بنجاح .

نعم إن في المقامات معلومات كثيرة ، وان كتب التاريخ كثيراً ما تستقي من تلك المعلومات ومن يقرأ كتاب « الحضارةالإسلامية في القرن الرابع الهجري » يجد أن مؤلفه كثيراً ما يؤيد رأيه بخبر من أخبار المقامات ، وهذا أمر يوجب التحفظ والحذر ؛ إذ ليس كل خبر أدبي بصالح ليكون مصدراً للتاريخ ، وخاصة إذا كان صاحبه كصاحبنا بديع الزمان .

إن الهمذاني يروي للمتعة ، وقد يجنح به الخيال أو تدفعه الضرورة اللغوية إلى إتمام جملة يتخلى من أجلها عن الواقع ... وقد يكون بعد ذلك متأثراً برأي خاص أو مذهب معيّن ، وما أحسب الهمذاني إلا كذلك حين تحدث عن الجاحظ ، ولئن زعم أنه يأخذ عليه تقصيره في ميدان الشعر ، إن الحقيقة أنه تحامل عليه لاعتزاله وهو الذي يكره المعتزلة ويزدري آراءهم ... وكذلك كان متأثراً بهواه حين هاجم الخوارزمي وزعم أن عدم إكرامه له هو السبب في ذلك الجفاء كله ..

وهكذا فلا بدّ أن يكون في الصورة الأدبية أثر ممن صوّرها ؛ إنه يصوّر ما يشاء ويغفل ما يشاء ، ويزيد منها أو ينقص تبعاً لهواه ورأيه ، ومن هنا كان لابدّ من الحذر .. ولا بدّ ـ في غير الفنّ ـ من إبعاد الأثر الفرديّ للكاتب وإلا كانت لكل مجتمع صور بعدد الكتّاب الذين صوروه .

إننا في حاجة إلى ذكر كثير مما أهملته المقامات لتبلغ الصورة حدّ الوضوح ، وفي حاجة إلى كثير من الحذف والتشذيب لتبلغ الصورة مرتبة الصدق ، وفي حاجة إلى معرفة النوازع النفسية للكاتب حتى نجرد كتابته من آثاره الخاصة فتبلغ الصورة مرتبة التجرّد والحياد العلمي ، ولسنا نريد من ذلك إلى الحطّ من قيمة المقامات في هذا المجال ، إذ حسب موضوعنا أنه يدل على إمكان الاعتماد على الأدب في استنتاج بعض مظاهر الحياة الاجتماعية .

وليس هذا بغريب أو جديد ، فنحن كثيراً ما نسمعهم يقولون ، ونقول معهم ، إن الجاحظ خير مصوّر لعصره ، فهل نعني بذلك أنه مؤرخ وليس بأديب ؟ لسنا نريد ذلك حتماً ولكننا نريد أن ما أوتيه هذا الكاتب من ذكاء ، وقوة ملاحظة ، واهتمام بتصوير الجزئيات ، وطواعية اللغة لقلمه ... كل ذلك مهّد له الطريق إلى التصوير الجيّد لما رأى وعاصر .. ولاشك أن هذا الاعتماد على الأدب يصبح أقوى حين يروي الأديب الخبر أو القصة بسندها كما في أخبار الأغاني مثلاً أو بعض كتب الجاحظ . ومهما يكن من أمر فنحن لا يسعنا إلا الاعتراف بأن الأدب العربي حفظ لنا الكثير من أخبار المجتمعات وصورها وخاصة تلك التي غذته فنشأ فيها وتحدث عنها ، ولا نستطيع أن نتصور أن « حيوان » الجاحظ و « بخلاءه » و « أغاني » الأصفهاني و « عقد » ابن عبد ربه لا تعطينا فكرة عن المجتمع الذي أنشئت فيه أو تحدثت عنه .

تعليق على الصورة المستقاة من المقامات : وأما الهمذاني فشأنه مختلف عن هؤلاء جميعاً ؛ إنه قيّد نفسه بأغلال الصنعة ورزح تحت عبء الأسلوب .. بل هو مختلف عنهم لأنه ما كان يقصد إلى الموضوع وإنما كان يعنيه الأسلوب ، ومن هنا نستطيع القول إنه كان ماهراً حين استطاع أن يوحي لنا ببعض صور مجتمعه مع أنه لم يقصد إلى ذلك .

ونستطيع القول أيضاً : إنه إذا استطاع بعض الأدباء أن يصوروا عصورهم أو مجتمعاتهم في موضوعات أدبهم فإن الهمذاني صوّر مجتمعه في أسلوبه ؛ وليس ذلك عجيباً ؛ فلقد عاش الهمذاني في عصر كان الناس فيه يهتمون بالزخرفة والمظهر ؟ ألم نسمع أنهم كانوا يبالغون في زخرفة واجهات أبنيتهم ؟ فكذلك كانت زخرفة الهمذاني اللفظية لمبنى المقامات صورة عن زخرفة عصره . وكانت مقاماته صورة لعناية الناس بالزخرفة والتزيين ، وهذا ما دعا الدكتور شوقي

ضيف إلى القول « إن المقامات كانت أشبه بواجهة أحد المساجد في ذلك العصر »[1] .

وهكذا كان في أسلوب المقامات صورة لظاهرة عرفها مجتمع الهمذاني ، كما كانت في موضوعاتها صور لجوانب أخرى من ذلك المجتمع .

ثم إن الهمذاني يختلف عمن ذكرنا من الأدباء لأنه مصوّر هزلي ، ولأن صوره في معظم الأحيان كانت تضخيماً لعيب من العيوب المضحكة في مجتمعه .. وهذا يدعو إلى التساؤل : ما دامت هذه الصورة الاجتماعية مستقاة من مقامات الهمذاني هذه الفكهة الطريفة فهل هي صورة هزلية تشبه الواقع أو تَقْرَبُه ؟ أي نوع هذه المرآة الهمذانية التي عكست لنا تلك الصورة ؟ هل هي من المرايا التي يقف الإنسان أمامها فإذا هو ذو شكل مضحك ، ربما لايمتّ إلى الحقيقة بصلة ، وربما كانت صلته بحقيقته صلة الصورة الهزلية (Caricature) بصاحبها ؛ لقد أصبح العيب الصغير فيه كبيراً واضحاً مضحكاً في صورته ، ومن يدخل غرف الإضحاك في أحد المعارض الدولية يعرف مدى قدرة المرآة على تغيير معالم الخيال !

وبعد فهل كان بديع الزمان مصوّراً هزلياً لمجتمعه ؟ وهل كانت مقاماته « مرايا الضحك » لتلك الفترة من الزمن ؟ لست أدري ولكن الذي يبدو أن هذا الخيال المضحك فيه ظل من الحقيقة إن لم يكن فيه الكثير منها ، وأن بديع الزمان صوّر من خلال تصويره الهزلي بعض المعالم الجدّية لتلك البيئة التي عاش فيها . إن هذه المقامات ـ وإن لم تكن مرآة صادقة مستوية واضحة للمجتمع ـ فيها الكثير من معالم المجتمع القريبة من الاستواء والوضوح ، وإن كان

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي : ١٢٠ .

فيها شيٌ قليل أو كثير من الخيال فهو الخيال الذي يعتمد بأساسه على الواقع فلا ينكره ولا يغيره بل يتخذ منه محوراً يحوّم حوله ولا يخرج عن نطاقه إلا قليلاً .

ومهما يكن فنحن لم نكن ننتظر رؤية صورة صادقة وواضحة للمجتمع ، وذلك لأن الوضوح والكمال لا يمكن الوصول إليهما من خلال نصوص يسيرة لكاتب واحد ، ونحن إذا أخذنا من المقامات بعض عناصر الصورة فذلك حسبنا ، إذ أننا أخذنا جزءاً واحداً من إنتاج أديب واحد . والحق أن استكمال الصورة يقتضي إضافة أدب العصر بجميع عناصره ومنتجيه ، ونحن لم نتعد أدب الهمذاني بل المقامات وحدها من ذلك الأدب مع أن في رسائل بديع الزمان أيضاً كثيراً من الموضوعات الإخوانية القائمة على المديح أو الاعتذار أو العتاب ، وإنما تجاوز بها ذلك فتحدث فيها عن كثير من الشؤون العامة ؛ إنه يصف في بعض رسائله الحكام ، ويشكو من ظلم الولاة والقضاة ، ويثور في بعضها لارتفاع الضرائب أو لسوء جباية الخراج .. ويصف في بعض آخر منها أخلاق التجار في عصره ...

وبعد فإن ما حصلنا عليه يكفي للدلالة على قدرة الأدب على الاحتفاظ بصور المجتمعات التي ينشأ فيها .. وأما إذا أردنا الوضوح والكمال فعلينا أن نحيط بأدب ذلك العصر ونقف منه موقفنا من المقامات لتكون الصورة لدينا أقرب إلى الصدق والوضوح والكمال .

مسرد المصادر

١ـ تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان . تعريب : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي .

٢ـ تاريخ الكامل لابن الأثير .

٣ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز . تعريب : الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة .

٤ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي . للدكتور شوقي ضيف .

٥ـ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الخضري .

٦ـ المقامات للهمذاني . شرح الأستاذ الشيخ محمد عبده .

٧ـ كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان لابراهيم الأحدب الطرابلسي .

٨ـ كتب التراجم :

معجم الأدباء لياقوت .

وفيات الأعيان لابن خلكان .

يتيمة الدهر للثعالبي .

مسرد الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥
مدخل البحث :	٦
الفصل الأول :	
من هو بديع الزمان ؟	**٩ـ٢٦**
موجز حياته	٩
من اتصل بهم	١٠
اتصاله بالخوارزمي	١١
مذهبه	١٤
خلاصة	١٦
تأليف المقامات وعددها	١٧
مارون عبود والهمذاني نقد وردّ	٢٠
الفصل الثاني :	
أدب الهمذاني وموضوعات مقاماته	**٢٧ـ٣٥**
معنى المقامة	٢٧
رسائله	٢٨
ديوانه . خصائص أدبه	٢٩
موضوعات مقاماته	٣١
تعليق	٣٤
الفصل الثالث :	
مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته	**٣٦ـ١١٣**
الخلفاء والنفوذ الفارسي	٣٦
حالة البلاد	٣٧

قاطع طريق يؤسس دولة ٣٨
بين أهل السنة والشيعة ٣٨
شمول الفوضى ٣٩
أثر تعدّد العناصر واختلاف المذاهب ٤٠
بين السياسة والمجتمع ٤١
قيمة الأخبار الأدبية ٤٢

١ ـ الزهد والوعظ ـ اللهو والمجون ـ عقلية العامة وما يدل عليها من معتقد ولغة وهيأة ٤٤

الزهد في التاريخ ٤٤
النزعة إلى الزهد في المقامات ٤٥
اتخاذ الوعظ وسيلة للخداع ٤٧
أخبار المجون في التاريخ ٤٩
المجون في المقامات ٥١
عقليّة العامة ٥٤
إيمانهم بالأحراز ٥٥
إيمانهم بشياطين الشعر ٥٦
لغتهم ٥٧
شتائمهم ٥٧
هيئاتهم ٥٩

٢ ـ المجالس الأدبية ـ المناظرات والجدل ـ القصص ٦٢

أخبار المناظرات في كتب التاريخ ٦٢
المناظرات الأدبية في المقامات ٦٤
رأي الهمذاني في امرئ القيس ٦٥
جرير والفرزدق ٦٦
القدماء والمحدثون ٦٦
الفرزدق وذو الرمة ٦٦
الجاحظ وابن المقفع ٦٧
تحصيل العلم ٦٨
المناظرات والجدل المذهبي ٦٩
مع المعتزلة ٦٩
أخبار القصة والقصاصين ٧٠

٣ ـ في الدّور والأسواق (الدور ـ المساجد ـ البيمارستانات ـ الحمّامات ـ المطاعم ـ الحوانيت ـ الحانات ـ الأسواق) . ٧٣

الدور في التاريخ ٧٣
الدور في المقامات ٧٣
المساجد في التاريخ ٧٥
المساجد في المقامات ٧٥
البيمارستانات ٧٧
الحمامات ٧٨
المطاعم والحوانيت والمآكل ٧٩
الحانات ٨٣

جرد
٢٠١٥

في الطرقات ٨٣
أدواتهم ٨٤
الشطرنج ٨٦

٤ ـ الكدية **٨٧**

الكدية في التاريخ ٨٧
الكدية في المقامات ٨٩
الكدية الجماعية ٩٥

٥ ـ قلة الأمن وكثرة اللصوص **٩٦**

السياسة والأمن في التاريخ ٩٦
في المقامات ٩٧

٦ ـ خصائصهم وعاداتهم (السذاجة ـ بين الأصدقاء ـ التقليد) **٩٩**

السذاجة وسرعة التصديق ٩٩
في أحزانهم ١٠٢
التقليد في التاريخ ١٠٣
في المقامات ١٠٣
كثرة الأسفار ١٠٥
تربية الحمام ١٠٥
صلابة الأصفهانيين في الدين ١٠٦
بين الأصدقاء ١٠٦

٧ ـ مناصب الدولة وأخبار الملوك **١١٠**

الخاتمة

من وظائفهم ١١٠
من عادات الملوك ١١٠
حول وضوح الصورة وصدقها ١١٢
تعليق على الصورة المستقاة من المقامات ١١٤
مسرد المصادر ١١٧
مسرد الموضوعات ١١٨